# حوارات

نشرة حوارية معنية بقضايا الفكر والثقافة
والسياسة والتنظيم · تصدر عن الحزب الشيوعي العمالي

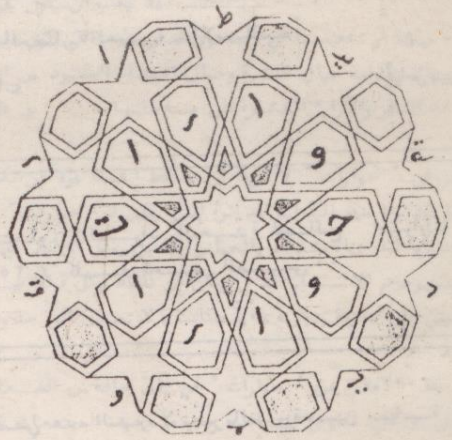

العدد ١ ـ ٢ ـ أيار ١٩٩٤ الثمن ٢٥ ل.س

## المحتويات


| | | |
|---|---|---|
| ١ ـ الحوار ... ومسؤولية المتحاورين | حوارات | ٣ |
| ٢ ـ التخلص من العقابيل ... أولاً | سعدون | ٥ |
| ٣ ـ ملاحظات أولى حول اعادة الاعتبار للماركسية | مقداد | ٨ |
| ٤ ـ حول البرسترويكا والتعبيرات الديمقراطية في الدول الاشتراكية | ب . س . م | ١١ |
| ٥ ـ " مع العدد السابق من حوارات " | د . م . ح | ٢٤ |
| ٦ ـ وجهة نظر | أ . ع | ٣٢ |
| ٧ ـ حول الهوية الحضارية العربية ـ الاسلامية | م . س | ٣٥ |
| ٨ ـ مقتطفات | الياس مرقص | ٤٠ |



نأمل أن لا تتجاوز المواد المُعدّة لصالح " حوارات "
/ ٢٠٠٠ ـ ٢٥٠٠ / كلمة كحد أقصى .



الآراء الواردة في هذه النشرة لا تعبر بالضرورة عن سياسة الحزب .

## الحـــوار .... ومسؤوليـــة المتحاوريـــن

اذا كان الحوار شرطاً لا غنى عنه على طريق التقدم والتطور والازدهار ، واذا كان الحوار في أحد أهم جوانبه ، شعوراً عالياً بالمسؤولية ، فعلينا أن نفترض بداهة أن " حوارات " يجب أن تسعى على الدوام للوصول الى مايحقق ذلك .

وبين هذه البداهة المفترضة والشيء المتحقق بيد وان هناك الكثير من الجهد الذي ينبغي بذله والعمل المضني الذي يجب القيام به للتمكن من التقدم باتجاه الوصول الى حوارنا " ومسؤول يتعامل مع الفكر بالفكر ، ومع الرأي بالرأي ، ومع الحجة بالحجة .... وفي هذا كله مسؤولية مشتركة لـ " حوارات " ولجميع المتحاورين على صفحاتها .

فالاعلان عن اصدار نشرة حوارية ، لا يجب أن يكون بأي حال من الأحوال اقلالاً في أهميتها أو تخفيضاً في المستوى الذي يجب أن تكون عليه ، أو انتقاصاً من قيمة الشعور بالمسؤولية حيال النشرة وحيال الهدف المنشود من اصداره ، هو لا حيال وجهات النظر والآراء المنشورة على صفحاتها .... بل على العكس من ذلك كله .

ونحن في " حوارات " لا نريد أن نغالط انفسنا ، ولا أن نغرق في الوهم . فقد كان لنا تقديرنا منذ البداية للدائرة التي يمكن لـ " حوارات " أن تصل اليها ، وكان لنا تقديرنا لمدى الانشداد والحماس اللذين يمكن أن يلاقيهما الاعلان عنها ، وكذلك لمستوى وحجم الاسهام الذي يمكن ان تلقاه ، وكل ذلك ضمن حدود التقدير المبني على معرفة وتجربة ، أياً ماكانت ، لا تصل الى حدود القطع أو التأكيد .

لقد جاء الاعلان عن " حوارات " في ظل حالة من الضعف والاحباط قل نظيرهما على صعيد القوى السياسية وعلى صعيد المجتمعات في قطرنا وفي سائر أقطار وطننا الكبير ، وعلى أمل أن تساهم ولو بقسط متواضع في كشف ما يحيينا وما يدور حولنا ، وفي وعي مسؤولياتنا وحدود الممكن في هذه المسؤوليات .... وفي معرفة الصواب وتأكيده والكشف عن الخطأ وتجاوزه .... على طريق المساهمة في اعادة تأمير يكون العقل سيدها ، والجدل منهجها ، والانسان ، كقيمة لا تعلوها قيمة أخرى ، غايتها .

ولا نبالغ اذا قلنا اننا في " حوارات " لا زلنا نرى فيما وصلنا من مواد حتى تاريخه بعداً غير قليل الأهمية في ماهو مرتجى ، ان كان لجهة المواضيع المثارة والتي جاءت بمعظمها حتى الآن لتتحدث عن التجربة المتحققة في الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية ، ولكن بشكل غاب عنه التوازن المفترض فيما يخص الحديث عن قضايانا المحلية والعربية والتي نعتقد أنها تستحق أن تولى من الجهد والبحث مايرفعها الى المرتبة الأولى ....، أو لجهة الآراء والمغايبين التي كانت في قسم كبير منها تغلق باب الحوار أكثر مما تفتحه ، حين تعمل على نسف رأي أو وجهة نظر أخرى حتى قبل أن تدخل معها في حوار !

مرة ثانية ، الحوار مسؤولية . فلنعمل معاً على تطويره وعلى انجاحه .

حوارات

## التخلص من العقابيل .... أولاً

في حياة الحركات السياسية ،كما في حياة الافراد والمجتمعات مراحل . وتقول مراحل دون أي بعد تطوري ،بمعنى أنه لا يوجد حركة صاعدة باستمرار وأخرى متدهورة ومتراجعة على الدوام . ثمة مراحل تنتهي أو على الأقل تستنفذ بضاعتها دون أن تموت ،وأخرى تموت مبكرة لتضافر عوامل عديدة تسهل في عملية قتلها . وبخلاف القانون الطبيعي الداروني ،ليس من الضروري أن يتخلص الانسان من الأسوأ أو من العضو الذي لم يعد من وظيفة له ،فحتى المجرم ،كما يذكر أحد أعمدة الفكر الاشتراكي في القرن الماضي ( كارل ماركس ) له وظيفة انتاجية .

كذلك ،فان للممارسة السياسية أمراضها ، وعلاج هذه الامراض يشكل الشرط الأول للتخلص من سلبيات حقبة انتهت . فقد تمتلك السياسة ،بمعناها النبيل ،وفي مرحلة ما ،عقولا فذة قادرة على الاجابة عن التساؤلات الاساسية لحقبة ،وفي حال لم يكن هذا هو واقع الأمر ، فان استخدام العقل للتخلص من أمراض الماضي مهمة ممكنة ولو غاب الجهابذة ،وهي تسهل على الأقل امكانية استنباط مناهج تفكير وعمل مبتكرة .

لن نذهب بعيداً في التاريخ ،حسبنا العقود الزمنية الثلاثة الأخيرة ، فمنذ انقلاب الثامن من آذار ، ووجود حزب يطرح خطاباً تقدمياً في السلطة ،والحركة الشيوعية تعيش حالة عسر هضم مزمنة . فمن جهة ،قامت السلطة ،على الأقل في السنوات الأولى ،بما تم التعارف عليه في أكثر من انموذج بيروقراطي شرقي ببنا " ديمقراطية شعبية ،ومن جهة ثانية ،فان هذا (( الانجاز )) بحد ذاته ،شكل حالة انتزاع لـ (( شرعية )) الخطاب الستاليني الذي يمكن اختصاره بالدولة أولاً ، الدولة ثانياً والدولة أخيراً . وقد حل قطاع من الشيوعيين السوريين المشكلة بالوقوف الى جانب السلطة في دور مقلوب [ أي أنهم يدورون في فلك الحزب الحاكم كما دارت اشباه أحزاب في فلك الحزب الشيوعي في هذا البلد أو ذاك ] في حين أن القطاع المنشق عن مدرسة الطاعة السوفيتية ،لم يقطع تماماً في لغته مع تصنيف المعسكر البيروقراطي بالاشتراكي ، كذلك استمر جزء العمل الشيوعي في دعوته لتعتين أواصر الكوميكون الى مابعد وفاته .

اذن ،لم تجري عملية فك الارتباط مع الانموذج السوفييتي . فالامر لا يعني بحال القطيعة مع الدولة أو الأحزاب ، وانما مع انموذج شوه كلمة الاشتراكية وأقام حاجزاً حديدياً بين الحرية والشيوعية . والحقيقة ان اعتراف الرفاق الكبار بقي الوسواس الخناس

في رؤوس الناس حتى امتقال (( حزب الله اوف )) . في هذه الاثنا ، كان ثمة فراغ حقيقي لما يمكن لحزب ديمقراطي اشتراكي أن يحتله ، وكون هذه الكلمة قد أصبحت شبه شتيمة في التراث اللينيني ، فقد شهدت سورية أحزابا شيوعية بالجمع ، رغم أن البلد لا يكاد يتحمل أحدها . ودخلت هذه الأحزاب في قضايا خلاف تبين مع انهيار الاتحاد السوفييتي ، انها لا تستحق مجرد اعادة الطباعة وموضوعات استراتيجية تغلق الباب على كل امكانية ابداع خلاقة في صفوف الشيوعيين .

شعار الاستقلالية لم يكن بالفعل قطيعة مع اللينينية ، التي كانت من أسباب البناء المشوه للنموذج السوفييتي . ومادام الشيوعي حريصاً على الكلمة ، عليه أن يقول لنا موقفه من الايديولوجية الماركسية اللينينية كمصطلح أوجده ستالين وتحول معه الى فاتحة لكل نظام داخلي في أحزاب يمكن أن نصفها بما نشاء ، الا بالديمقراطية .

بالطبع لا حاجة لتناول خطاب (( التأقلم )) الذي ميّز موقف الأطراف أو الطرف الذي اختار التحالف مع السلطة كونه أعجز عن أن يقنع أصحابه .

في المقابل ، ثمة مرض محلي آخر لابد من معالجته ، هو مرض (( التفهم )) . والمقصود بالكلمة ان الاحساس الشعبي العفوي على حق من حيث المبدأ . وقد تجلت هذه المسألة خلال المعركة بين السلطة وحركة الاخوان المسلمين ، حيث انحصر الموقف الشيوعي بين المطالبة بادانة أكبر والمطالبة بتفهم أكبر ، وفي الحالتين ، كان الموقف رد فعل أكثر منه ضمن نظرة واسعة الأفق ، ديمقراطية العمق وتقدمية الابعاد .

وضمن هذا النطاق أيضا ، يمكن تناول أزمة الخليج والموقف الرد فعلي منها . لقد تغير العالم ، وأثنا ، هذا التغير ، خسر العرب عدة معارك كبيرة بالمعنيين العسكري والحضاري . ومايلفت النظر ، هو غياب أدبيات الهزيمة وادراك مايترتب على الهزيمة من اعادة نظر شاملة بالمفاهيم . فحتى اليوم انحصر الرد على الهزيمة بالتعبئة غالباً الكلامية ، للحرب الثورية أو الرسمية او التوازن الاستراتيجي الخ ، ولم تجر عملية مناقشة بديل سلمي ، يؤثر اعادة بنا ، الانسان ويسعى لدخول العصور الحديثة عبر انتصارات عسكرية ، انتصارات علمية وتكنولوجية وانتاجية تسمح للمواطن بأن يكون أخيراً وطنياً بالفطرة لا بالاكراه .

هناك أخيراً مطلب جماهيري غريب ، ولكن هام ، وهو خلق ظروف مناسبة للكوادر والعقول للعيش في البلد وعدم الهجرة ، أي تبني قضية الحرية كمشروع حضاري . وهذه الجملة التي يعتبرها البعض نخبوية هي ضرورة حيوية للبقا ، في العالم الثالث . فلدينا فائض كاف من حثالة المدن وسكان بنغلادش وكل ما نشاء ، من التعاريف التي تعطي قيمة أو تصادر

احتراماً لهذه الفئة أو تلك ،والمجتمع والسلطان يعتمدون على الغوغا ° من تسويق العنصرية المحلية [طائفية ،عشائرية ،محلية ،أصولية ] الى جلادي مراكز التحقيق ° وعملية تفريغ العالم الثالث من النخب العلمية والفكرية تناسب ،ويا للصدفة ، الطغاة من الحكام ، و(( العدو الامبريالي )) والتيار الخميني ° كل لحاجة في نفسه لاتحتاج لبلاغة الكاتب °

المأساة ،ان اية نهضة مادية وثقافية تحتاج الى عقول وتحتاج الى كوادر حرة أو على الأقل عرفت وعاشت معنى الحرية واستطاعت عبر هامش أدنى للحرية من ايصال صوتها للمجتمع °

هل يمكن أن لا نتنازل عن قضية الحرية في تناولنا للتجربة القومية من ناصر الى صدام وأزمات اليسار مع ذاته ومع مجتمعه ؟

ان فتح باب الحوار على مصراعيه اينما كان ذلك ممكناً ، دون محرمات ، ودون لعبة احترام المشاعر ( الانتهازية ) يمكن ان تعيد الثقة بنوافذ تدافع عن حرية رأي الآخر ،على في ثناياها ، بعض مما يشبع عطش البشر لخطاب جديد يتناسب مع المعطيات الجديدة °

بقلم : سعدون

.....

## ملاحظات أولية حول اعادة الاعتبار للماركسية

تشكل انهيار الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية ،فجيعة كبيرة لمعظم الاحزاب (( الشيوعية )) . وبدأت في معظمها أزمة فكرية وسياسية وتنظيمية تختلف عن الازمات السابقة ( الصراع مع تيتو ، أو الصراع الصيني ـ السوفياتي ) . الأزمة هذه المرة هي أزمة وجود عند أغلبها . وبدأت معركة طويلة حول أهمية الاحتفاظ بالاسم (( الشيوعي )) أو مدى أهمية الالتزام بالماركسية .. وغير ذلك من نقاشات لم تنته بعد .

الأزمة أزمة (( هوية )) ،من نحن ؟ أو بالاحرى بعد وفاة الشقيق الأكبر ماذا أصبحنا وماذا سنصبح ؟ يمكن تسميتها أزمة (( تيتم )) انتهى . الصرح المرجعي خلق توجهات مختلفة ،بل حررها . مثال أحزاب البلدان المعنية نفسها خير دليل على ذلك ،حيث خرجت منها تيارات قومية صرفة مثلما خرجت تيارات ليبرالية وأخرى ماتزال ماركسية . هذا التفتح شبه الحر لمختلف النزوعات ضمن هذه الأحزاب ،حصل مايشبهه في الأحزاب الشيوعية العربية نفسها .

ضخامة هذه الأزمة ، وهذا الشعور بتأخذ أهميتها من سببين :

الأول : أن انهيار الدكتاتوريات البيروقراطية في الدول (( الاشتراكية )) سبب زلزالاً ضمن التيار المهيمن في الحركة العمالية العالمية وهو التيار الستاليني .

الثاني : أن التيارات الأخرى الأقلية في الحركة العمالية ضعيفة وهامشية وبالتالي فان تأثرها وتأثيرها يبقى محدوداً .

مواجهة هذه الأزمة بجرأة وصراحة ضروري ، للقدرة على التوصل بوضوح الى مخرج نضالي وكفاحي وتقدمي لها . وهذا يتطلب بدءاً توضيح نقطة هامة وأساسية ، وهو أن (( الحركة العمالية )) تنقسم الى قسمين : الأول هو الحركة العمالية الفعلية أو الطبقة العاملة والمأجورين عموماً اضافة الى النقابات .. والثاني هو التنظيمات السياسية للحركة العمالية التي كانت الحركة الشيوعية لغاية الأمس هي الجزء الأكبر والمهيمن فيها .

في الواقع ،ان القسم الثاني لايتطابق تماماً مع القسم الأول ،والعكس صحيح . ان مجرد فرضية أنه يمكن أن تنتفي الحركة الماركسية الى الأبد ، لا يعني ولن يعني ( في ظروف النظام الرأسمالي القائم ) انتفاء الحركة العمالية الفعلية ،أي نضالات الطبقة العاملة والمأجورين عموماً الى تحسين شروط عملهم ونضالهم لتحقيق مجتمع أكثر عدالة وانسانية .

والدال أن النزعة الليبرالية الجديدة التي غزت وراجت في البلدان الرأسمالية المتروبولية منذ عهد ريغان وتاتشر ،ورافقت الانهيارات في دول الدكتاتوريات البيروقراطية ،وأشاعت خرافة الظفر النهائي للنظام الرأسمالي وديمومته وقدرته على حل كل أزماته ،قد اندحرت هي هي أيضاً . فهذه الدول ذاتها تعاني من أهم أزماتها ، مما يعيد مرة أخرى الى الأعتماد على سياسات تتدخل فيها الدولة أكثر فأكثر ، وفي بعض البلدان مع سياسات كينزية واضحة. ان اعادة الهيكلة الاقتصادية في هذه البلدان ،ومرافقها من زيادة في البطالة وأزدياد حدة الأزمة الاجتماعية المرافقة لها ، وارتفاع حدة النضالات العمالية والفلاحية والحركات الاجتماعية فيها ،يدحض مرة أخرى خرافة قدرة النزعة الليبرالية على تخليص النظام الرأسمالي من أزماته .

هذه الصورة المتقابلة لانهيار نظام ، وأزمة نظام آخر، لايمكن أن تنفي ضرورة بل وحيوية اعادة النظر في النظرية الماركسية والاهتمام بكل المكتسبات النظرية والفكرية والسياسية التي تفتحت عنها عقول البشر ونضالاتهم خلال العقود السابقة .

يبقى أن الماركسية باعتبارها (( نهجاً )) نقدياً جذرياً للنظام الرأسمالي وتناقضاته ، مع كل التطويرات التي حصلت عليها وكذلك باعتبارها أداة كفاحية تحشد قطاعات ماتزال هامة من شرائح المثقفين والمأجورين ، هذه الماركسية لم تنهر بعد بل ماتزال ،ونعتقد أنها ستبقى طالما بقي النظام الرأسمالي قائماً ، جزءاً من الأجزاء الأكثر جذرية في معاداتها للنظام الرأسمالي من وجهة نظر تقدمية وانسانية .

أعتقد ، وعلى سبيل التناول السريع، بأمل استطاعة التناول التفصيلي في مقال لاحق بأن قضيتين أساسيتين قد برزتا من هذه الانهيارات ،واحتلتا على صواب مكاناً بارزاً .

الأولى : قضية الديمقراطية ، الحريات الديمقراطية العامة وحقوق المواطن ،هذه القضية التي لم تختزل فقط داخل البلدان (( الاشتراكية )) سابقاً وضمن الحركة الشيوعية العالمية (( الستالينية )) الى مجرد فكرة بورجوازية يجب محاربتها وادانتها ، بل وضعت في أحسن الحالات عند (( الستالينيين )) باعتبارها نمطاً للحكم والمجتمع مغايراً تماماً وغير متطابق مع النظام الاشتراكي . هناك قطيعة تامة سببتها الستالينية بين الاشتراكية والديمقراطية . ربما تسمح الأزمة الراهنة بانهاء هذه القطيعة ،لأنه (( ليس بالخبز وحده يحيا الانسان )) علاوة على أن (( الوهم )) الذي أصاب قطاعات واسعة من جماهير البلدان (( الاشتراكية )) سابقاً ،من أن الرأسمالية ستوفر ليس الحرية فقط بل وأيضاً حياة أفضل ، بدأ بالتبدد .. والانتخابات الاخيرة في روسيا وقبلها

في بولونيا .. توضح معالم ازالة الوهم هذا .

ان تفتح العقل والروح عند المناضلين ومنهم (( الستالينيين )) سابقاً على هذه القضية هام جداً ، وهي ليست اكتشافاً جديداً ، ان حواراً حول الصيغة المثلى ، ليس فقط نظرياً ، بل وأيضاً برنامجياً ( أي عملياً ) ، لاطلاق رؤية يتلاحم فيها المشروع الاشتراكي مع الديمقراطية ، هو من المسائل الهامة التي يجب اعطاؤها أهمية كبرى . ان الاشتراكية الديمقراطية ، كتيار سياسي وفكري ، قد أفضت الى انتكاسات حقيقية للحركة العمالية في البلدان التي حكمت فيها ، ومثال فرنسا واسبانيا اليوم خير دليل راهن على الاخفاق المتواصل لتيار الأممية الثانية .

ان اعادة الاعتبار لتيارات جذرية أقلوية في الحركة الماركسية تعرضت للاضطهاد من الستالينية يقدم ارثاً تاريخياً فكرياً وسياسياً دليلاً على خصوبة وكفاحية الماركسية التي لم تنحط الى دكتاتوريات بيروقراطية ، معادية ليس فقط للديمقراطية بل وللمواطن كانسان . هل نذكر بملايين الفلاحين ، أثناء عمليات التجميع القسري الستالينية ، وهل نذكر بمليون عامل ومناضل شيوعي اغتالهم النظام الستاليني ...

ان (( الشقيق الأكبر )) كما كان يسمى سابقاً ، لم يكن سوى جهاز مرعب لتبرير أقذر الجرائم بحق الاشتراكية والطبقة العاملة والانسان في الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية . حمداً أولاً ، أن هذا الكابوس ، وهذا العار قد زال .

لا أريد عرض مفهوم (( ما )) حول مكانة الحريات الديمقراطية في النظرية الماركسية . فلنترك هذا لنقاشات لاحقة ، بيد أن مثل هذا الفهم موجود في الماركسية ، وله تاريخه وارثه ونضالاته ، من المهم الالتفات اليه والاستفادة منه .

القضية الثانية : ان هذه الانهيارات ، أدت على المستوى الفكري الى هزة عميقة ، نأمل أنها ستؤدي الى دفن بعض المفاهيم المتحجرة ، كمفهوم الحتمية ، هذا المفهوم الذي مسخ كل ابداع للانسان وكل تنوع عنده أو في المجتمع .

ستنتصر (( حتماً )) الاشتراكية ، ستنتصر (( حتماً )) الطبقة العاملة ، سيقود (( حتماً )) الحزب الشيوعي دولة البروليتاريا ... ، سينهار (( حتماً )) النظام الرأسمالي ... ، هذه الحتمية القدرية ، أدت الى سهولة فكرية في تناول قدرة النظام الرأسمالي على التغلب على أزماته المتوالية ، وعجز بل عمى مقصود أحياناً عن فهم هزالة وعجز هذه الانظمة البيروقراطية المسخ ، التي كانت تدعى اشتراكية .

عندما كانت روزا لوكسمبورغ ، تقول (( الاشتراكية أو البربرية )) لم تكن تقصد أبداً

حتمية انتصار الاشتراكية ،بقدر ماكانت تفصد أن بقاء النظام الرأسمالي سيؤدي دائما الى عذابات وآلام وحروب وحشية ،قد تؤدي بالعالم الى الجحيم . من هنا ضرورة الاطاحة بالرأسمالية .

من كان يحلم بتسلسل سير المجتمعات البشرية من مرحلة الى أخرى بشكل مستقيم كمي تصل في نهاية المطاف الى الاشتراكية ، فقد استبدل ديناً بدين آخر ،واعتمد على الله (( وهو على كل شيء قدير )) . خصوبة الواقع وتنوعه وكونه أغنى من أي نظرية هو مبدأ ماركسي (( وضع في سلة المهملات )) ليستبدل المنهج النقدي للماركسية ، بمبدأ وضعي اقراري ، يختزل بمقولات مرقمة مطبوعة سلفاً للاستهلاك السريع .

تبدو اليوم الاشتراكية (( حلماً )) بعيداً ،ازداد بعداً ، هذا الابتعاد يمزق فؤاد المناضلين الصادقين الذين آمنوا فعلاً أن بلدان الدكتوريات البيروقراطية كانت بلداناً اشتراكية ،وأن انتصار الاشتراكية قادم لاشك فيه ،لأن (( المنافسة بين النظامين )) حسب المفهوم السوفياتي السابق كانت تسير لصالح (( المنظومة الاشتراكية )) .

ان فقدان (( الطوبى )) الاشتراكية يؤدي في حالات كثيرة الى السعي للانخراط فقط في ما هو راهن ،بله مباشر . هذا قد لا يكون سيئاً ،لكن فقدان رؤية استرتيجية يؤدي الى الغوص في كل ما هو تكتيكي دون الاستناد الى آفاق مستقبلية . لنُعِدَّ الاعتبار الى (( الطوبى )) الاشتراكية بواقعيتها التي ماتزال راهنة ، حيث الاشتراكية مجتمع يتحرر فيه الانسان من آليات الاستغلال وتتفتح فيه طاقاته ،حيث المجتمع منفتح على كل الحساسيات الفكرية والسياسية المتناقضة ويسمح لها بالتعبير والحرية . وبداية هذه (( الطوبى )) هو الاعتراف بحق وحرية تواجد الاختلاف والتيارات ضمن الأحزاب نفسها ، لأنها ان لم تضمن ذلك داخلها يصعب علينا تخيلها تضمن ذلك للمجتمع . لنُعِدَّ الاعتبار للماركسية ، كمنهج نقدي جذري ، وتطبيقه حتى على سياسة وممارسة الأحزاب الماركسية نفسها .... وأولها الجدل الذي يجب تحريره من مخلفات ومعلبات التحفن الستاليني والمدرسي .

ندعو الى اعادة الاعتبار الى (( رومانسية )) الطوبى أعلاه والى (( تشاؤم )) العقل في تحليله للواقع ، مما يحمي من الشطحات الفكرية والسياسية . ما يحتاج اليه المناضلون اليساريون هو (( تفاؤل الارادة وتشاؤم العقل )) كما قال أحد ضحايا الستالينية ، الماركسي تروتسكي .

كانون الأول ١٩٩٣

بقلم : م . مقداد

## حول البرسترويكا والتغييرات الديمقراطية في الدول الاشتراكية

تشكلت التغييرات في الاتحاد السوفييتي ودول أوروبة الشرقية أحد أهم الأحداث السياسية بعد الحرب العالمية الثانية ،ان لم تكن أهمها على الاطلاق . فقد أنهت في الواقع نتائج الحرب الأخيرة في أوروبة على المستوى الجيوسياسي وخلفت مقدمات انهيار الأحلاف العسكرية التي أعقبتها ،فاتحة الباب أمام اعادة تشكيل العلاقات الدولية على أسس جديدة .

لقد هزت التغييرات وقلبت أنظمة تستمد شرعيتها من الأيديولوجية الشيوعية . أي من تلك الايديولوجية التي تبشر بانها " الاستغلال وتحقيق الحرية للانسان . وان كان بالامكان ، ومنذ زمن بعيد ، نقد هذه الايديولوجية ، فان الاحداث الاخيرة وضعت نقطة الختام للتجربة التي أفرزتها . فكل مجتمعات أوروبة الشرقية ،دون استثنا " اختارت الخروج من النظام الشيوعي .

أتت الدفعة الحاسمة لهذه التغييرات الديمقراطية من خلال وصول وتوطد فريق جديد على رأس السلطة السوفيتية ،كانت تصوراته النقدية حيال التجربة الماضية تتوافق مع حاجة المجتمع السوفياتي الماسة للتغيير . وباعتبار ان هذا المجتمع لم يكن يمتلك وسائل التعبير والتغيير ، فمن الطبيعي أن يتم التغيير من فوق اذا قضي له أن يأتي ! .

### آلة القمع :

الاستبداد السياسي هو أحد أهم أسباب الأزمة العميقة التي ضربت بنى وآليات النظام السوفييتي ،ان لم يكن أهمها . وجذوره تعود بدون شك للثورة الروسية في اكتوبر ، التي تجاوزت مع الزمن تراث القمع القيصري الى مستويات قلما عرفناها في التاريخ الانساني الحديث .

لقد بدأت ثورة أكتوبر بتصفية البيض والبورجوازية وأحزاب اليمين . ثم أصبح العنف الثوري يبرر كل شيء : الاعدامات ،السجن ،المصادرة ...الخ حتى وصل الأمر للعنف العاري ،اعدام آلاف الفلاحين في القوقاز وسحق انتفاضة كرونشتات ،اطلاق الرصاص على المتظاهرين المحتجين على حل الجمعية التأسيسية الذي قرره البلاشفة بعد ان حصلوا على ٢٥٪ فقط من الأصوات ...الخ .

لم يكن هذا العنف مجرد حادث عابر في مسار مضني . بل كان أول الخطوات في آلية

متكاملة ومنسجمة ستستمر عشرات السنين اللاحقة فبعد البيض يجري تصفية أحزاب اليسار، ثم تصفية المعارضة العمالية، ثم تصفية التيارات في الحزب نفسه، ثم تصفية أية معارضة داخل الحزب، وأخيراً تصفية أعضاء المكتب غير المعارضين لكن الذين قد يكونون شيوعاً بعض الشيء أو غير مطيعين بما فيه الكفاية !.

ويكفي أن نسوق ببعض الوقائع المعروفة على قلتها لتقدير حجم هذا القمع وبربريته، مستندين في هذا على كتابات ماركسيين معروفين ( تقرير خروتشوف السري وكتابي "تاريخ الظاهرة الستالينية" لجان انتاين و "ستالين" لروي مدفدف ) . نسوقها دون ترتيب، فحتى بهذا الشكل، هي أكثر فصاحة من كل الشعارات :

- تصفية ملايين الفلاحين في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات .
- من أصل / ٦ / قادة تاريخيين للثورة لينين مات معزولاً وستالين قتل الأربعة الآخرين .
- ٥٦٪ من أعضاء المؤتمر / ١٧ / للحزب جرت تصفيتهم .
- ٧٪ من أعضاء المركزية المنتخبين لهذا المؤتمر جرت تصفيتهم .
- أربع أو خمس ملايين شخص وضعوا في المعسكرات والمعتقلات على الأقل، اذ كان وضع المشبوهين في المعسكرات أمر رائج . وقد أقر المؤتمر الخاص للحزب المنعقد عام ١٩٣٨، اعتقال أي شخص خطر اجتماعياً ووضعه في المعسكرات لمدة / ١٠ / سنوات . ثم زادت هذه المدة "غير الكافية" الى / ٢٠ / سنة عام ١٩٤٣ .
- ٤٠٠ الى ٥٠٠ ألف شخص اعدموا بدون محاكمة . وفي بعض الأيام كان يجري اعدام الف شخص يومياً في موسكو في الثلاثينات .
- وفي المؤسسة العسكرية أعدم ٣ مارشالات من أصل ٥، $\frac{٣}{٥}$ جنرالات الصف الأول ١٢٠ جنرال صف ثاني، ١٠٠٪ من كوادر الفرق، ٧٠٪ من قادة الألوية . كما أعدم كل أعضاء المجلس الحربي تقريباً ( ٨٠ ضابطاً ) وهم كبار الضباط الذين تحالفوا مع ستالين ضد تروتسكي . وأغلب المصادر تقدر عدد الضباط الذين أعدموا بـ ٢٠ ألف ضابط .
- كل أسرى الحرب السوفييت في المعسكرات الالمانية، ويعدون بالملايين، جرى نقلهم بعد "تحريرهم" الى معسكرات اعتقال سوفيتية كونهم مشبوهين .
- في كايتن، قامت الشرطة السياسية السوفياتية بتصفية ٢٠ الف ضابط بولوني سجين .
- اعدام قادة الاشتراكية - الديمقراطية المستقلة واللاجئين لموسكو بتهمة التجسس لصالح الامبريالية الامريكية .

ـ محاكمة قادة الأحزاب الشيوعية الذين اعترفوا بجرائم وهمية تحت التعذيب البربري. واعدام منهم راجيك ( هنغاريا ) ، كوسكوف ( بلغاريا ) ، وزود ي ( البانيا ) وسلانسكي أمين عام الحزب التشيكي . كما سجن كل من كادار ( هنغاريا ) وغوموكا ( بولونيا ) . وهذا غيض من فيض .

لكن القمع آلية متعددة تضرب كل نواحي الحياة وتصيب الطاقات الخلاقة والابداع ولا تقتصر على الناحية المادية والمباشرة والأسارية بخصال العلم والثقافة في دولة الاشتراكية الأولى خلال الحكم الستاليني كان مصيرها في ليبيا القذافي أفضل منه بكثير . اذ أقرت السلطات الماركسية ـ اللينينية العلمية جدا أن هناك علماً بورجوازياً وآخر بروليتارياً . فمنعت المناهج الحديثة الأمريكية في علم الاقتصاد والمعتمدة على الرياضيات لكونها بورجوازية . وهوجمت نظرية مندل في الوراثة وأعتبرت غير علمية . أما العالم الروسي " ليسنكو " المكلف بمهاجمة مندل يفقد طبق نظرياته البروليتارية على الزراعة في الأربعينات مما أدى الى انهيار الانتاج . كما هوجمت أهم نظريات الفيزيات الحديثة : الكوانتا والنسبية . ومحي التحليل النفسي والسبرنتيكا من قائمة العلوم . كما أدين فرويد وانشتاين بوصفهما كوسموبوليين مضرين. وأعتبرت موسيقى شوستاكوفيتش وبروكونييف ( أحد أهم الموسيقيين في هذا العصر ) منحطة. وكم هناك من الأمثلة عن المسرح والشعر وباقي العلوم ...

ان عملية تطويع المجتمع السوفييتي لم تتوقف مع موت ستالين بل اتخذت أشكالاً أخرى أقل اتساعاً . وانتهت خلال الحكم البريجينيفي بتشريع القمع من خلال قوانين أجد ر بالقرون الوسطى . فكان من يتهم بدعاية معادية للاتحاد السوفييتي يعاقب بالسجن من / ٦ / أشهر الى سبع سنين قد تترافق بالنفي لمدة تتراوح بين السنتين والخمس سنين ( المادة ٧٠ ) . ومن يتهم بنشر الاكاذيب التي تشوه النظام يحرم من حريته لمدة ثلاث سنوات ( المادة ١٩٠ـ ١ ) . بل أسوأ من ذلك فالمواد ٦٤ و ١٩٨ من الدستور توازي مابين الخروج غير الشرعي من البلاد وخيانة الوطن . الأمر الذي يعني تطبيق عقوبة الاعدام . وفي أحسن الأحوال ، السجن من ١٠ الى ١٥ سنة . ولا ننسى القمع البشع الذي مورس في السبعينات بوضع المعارضين في مصحات نفسية واعتبارهم مختلين نفسياً ونسج النظريات العلموية الكاذبة حول أمراضهم المزعومة . هذا عن القمع المباشر . لكن تطويع المجتمع وارهابه كان مهمة يومية لاجهزة الأمن المنتشرة التي تبث الخوف والمخبرين في أوساط الشعب .

هل يمكن اعتبار هذه الدرجة من الاستبداد مجرد منحدرة عابرة أم أنه تعبير عميق عن نموذج سياسي متكامل ؟ .

## نظام اشتراكي أم ... ؟

لا يمكن البحث عن المعنى العميق للاحداث التاريخية من خلال الأيديولوجية أو الخطاب الدعائي لصانعي الأحداث أو المشاركين فيها ، بل يجب البحث عنه من خلال سيرورة الأحداث نفسها ونتائجها . لذلك فان تسمية النظام السوفييتي بالاشتراكي أو غير ذلك ليس له أهمية كبرى . المهم معرفة فيما اذا كان هدف اقامة النظام هو الذي يحدد مساره أم أنه التاريخ الواقعي .

الهدف المعلن لثورة اكتوبر هو تحقيق مجتمع عدل اجتماعي يتمتع الانسان فيه بحرية أعلى من المجتمعات الرأسمالية . لكن تاريخ النظام السوفييتي كان يسيره باستمرار هدف آخر: التصنيع السريع والقسري لروسيا بأشكال أخرى غير التي قامت بها البورجوازية في أوروبة في القرن التاسع عشر . بمعنى آخر رفع مستوى الانتاج والتصنيع ، أو بحسب الماركسية ، القوى المنتجة ومن أجل هذا الهدف عومل البشر كآلات منتجة تحت غطاء أيديولوجي كثيف ، العامل الروسي الذي يعمل بظروف قاسية ودون أدنى حد من الرفاهية والحرية ، يعمل لنفسه ، أما العامل في البلدان الرأسمالية فهو يعمل لغيره !؟ .

كان يجب أن ننتظر الغلاسنوست وبعد ٧٠ سنة من الثورة ، لنكتشف أن المردود الوطني فقط يعود للقوى المنتجة في الاتحاد السوفييتي . أما عن "المكتسبات الاجتماعية" للاشتراكية فهي لا تقارن من حيث النوع والكم بتلك التي عرفتها الدول الرأسمالية المتطورة. فالاتحاد السوفييتي يحتل المرتبة / ٥٠ / في العالم من حيث ارتفاع نسبة وفيات الأطفال، والمرتبة / ٣٢ / في متوسط العمر ، أي بمستوى دول العالم الثالث .

أما مستوى حياة العمال ، فانه لم يصل الى مستواه في روسيا نفسها لعام ١٩١٣ الا عام ١٩٦٥ ، والفلاحين في عام ١٩٧٧ . وفي بداية الثمانينات ، كان / ٤٠ / مليون مواطناً سوفياتياً يعيشون تحت مستوى الفقر ( بدخل أدنى من ٧٠ روبلاً في الشهر ) . وأكثر من نصف المستشفيات الريفية لا يصلها الماء . دون الحديث عن الفساد المتفشي بكثافة في أوساط الحزب والدولة ، والمحسوبية ... الخ .

لكن بغض النظر عن هذه الأرقام والوقائع ، كيف يمكن تصور مكتسبات اجتماعية في نظام لا يمتلك الشعب فيه حرية التعبير والاحتجاج . في نظام يسحق الفرد ويدينه مسبقاً ان لم يدخل بآلية السلطة نفسها .

لقد امكن انجاز التصنيع السريع بفضل سياسة التجميع القسري للفلاحين في نهاية العشرينات ، والتي ذهب ضحيتها ملايين الفلاحين ، والتي وفرت للسلطة فائضاً مادياً

وظف في الصناعة . الأمر الذي أدى الى تغيير كبير في البنية الصناعية للاتحاد السوفيتي لدرجة أنها أصبحت تقارن في نهاية الثلاثينات ببنية المانيا الصناعية . لكن انتاجيتها وتنظيمها بقيا أدنى بكثير من المانيا . الا أن الآليات والبنى التي وضعت من أجل التصنيع أصبحت مانعاً لتطوره ، لاسيما السلطة المطلقة ،والتخطيط المركزي للعملية الانتاجية . وان كان من الصعب الآن الدفاع عن ضرورة السلطة المطلقة وعلاقتها بالاشتراكية ،فان الكثيرون مازالوا يوازون مابين الاشتراكية وبين التخطيط المركزي للاقتصاد .

هنا تجدر الاشارة الى أن التخطيط كما مورس في الاتحاد السوفييتي لم يكن مجرد وضع خطوط عامة واستراتيجية صناعية في الميادين الهامة من الانتاج ،وانما كان الوجه الاقتصادي للاستبداد . فكل شيء كان مقرراً من أعلى : الكميات ،المدة وحتى الحاجات . هدف العملية الانتاجية لم يكن تلبية حاجات المواطنين والمستهلكين بالشكل الذي تظهر فيه من خلال السوق قبل تنفيذ المخططات الموضوعة من قبل السلطات ! هذه الأخيرة ،لم تكن تنظم الانتاج والتبادل فقط ،بل أيضاً حاجات الفرد وطريقة تلبيتها . في الحقيقة ان هذا النظام كان أشبه بـ " ١٩٨٤ " لجورج أورويل ،منه للاشتراكية كما تخيلها روادها في القرن التاسع عشر ، أو كما صورتها الشعارات البراقة من مثل : "مجتمع الكفاية والعدل " " من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته " ...الخ ، التي لم تكن الا واجهة دعائية .

انعكس هذا على القوى المنتجة التي أصبحت أسيرة بنى بيروقراطية جامدة ومخططات جاهزة في ظل غياب الحوافز المادية والمعنوية . فانخفضت انتاجيتها وتفشت فيها ظواهر التغيب والفساد والادمان ...الخ .

## المعسكر الاشتراكي :

الحديث عن معسكر اشتراكي في أوروبة ،هو مجرد استرسال لفظي فرضته الدعاية السوفييتية بهدف اخفاء حقيقة الهيمنة السوفييتية على أوروبة الشرقية . فسلطات الفيندول الاشتراكية وأحزابها الشيوعية لم تكن تمتلك حرية القرار السياسي ،وهذا منطقي كونها فُرضت على مجتمعاتها بالقوة العسكرية السوفييتية التي كانت تمنع أي تغيير سياسي لا يلائمها ، سواء أتى من سلطات البلدان نفسها أو من المجتمع ( فما بالك بقلب النظام السياسي بأسره ) . فقد تدخلت لسحق الانتفاضة العمالية في برلين الشرقية ( ١٩٥٣ ) ،وفي بولونيا ( ١٩٥٦ ) وخاصة في المجر ( ١٩٥٦ ) مخلفة هناك / ٣٠ / الف ضحية . ثم في تشيكوسلوفاكيا ( ١٩٦٨ ) ،حيث تدخلت ضد قيادة الحزب الشيوعي التشيكي نفسه .

وحتى انقلاب جاروزلسكي في بولونيا ما كان أن يقوم ويستمر لولا ظل الجيش السوفييتي الثقيل .

وكان يكفي ، والحال هذه أن يرفع الاتحاد السوفييتي سيفه عن دول أوروبة الشرقية لكي تنطلق فيها التغييرات بهذه السرعة الهائلة .

في مناطق أخرى من العالم غير أوروبة قامت سلطات تقودها أحزاب شيوعية ، أهمها على الاطلاق الصين . لكن بدل أن تشكل هذه الأخيرة أحد أعمدة " المعسكر الاشتراكي " دخلت في صراع مع المعسكر الأوروبي الذي يقوده الاتحاد السوفييتي وأصبحت قطباً منفصلاً له رواده في الحركة الشيوعية واليسارية العالمية . بل أن الصراع وصل الى درجة النزاع المسلح ( الصين - فيتنام ) ، ناسفاً معزوفة " العلاقات السلمية بين الدول الاشتراكية " .

باختصار ، فان التجارب الأخرى للنظام الشيوعي خارج الاتحاد السوفييتي لم تكن أكثر عطاء " أو ايجابية . ينطبق هذا على دول العالم الثالث كما على دول أوروبة المتقدمة ( تشيكوسلوفاكيا ، ألمانيا ) ، حيث وجد النظام الشيوعي وجد الاضطهاد السياسي والثقافي ، ووجدت ادارة بيروقراطية معطلة للطاقات الخلاقة والمبدعة في المجتمع ووجد التشويه المنظم للتاريخ ، ووجد الفرد نفسه في آلة تتجاوزه وتطحنه ، وصلت أحياناً الى درجة العبث والبربرية .

## الاتحاد السوفييتي والعالم :

العلاقة مع العالم تبدأ بالعلاقة مع الذات . وفيما يخص الاتحاد السوفييتي فهي البدء كانت مشكلة القوميات .

بعد الثورة مباشرة طرحت مشكلة الدول والقوميات الخاضعة للحكم الروسي القيصري ، وحق تقرير مصيرها . لكن سرعان ما جرى التخلي عن هذا المبدأ لصالح الضم القسري وتشكيل امبراطورية ضخمة أصبحت تسمى الاتحاد السوفييتي . وبرر هذا الضرورة امن استمرار الثورة وحمايتها . اذ أن هذه الثورة ، مثلها مثل كل الثورات ، تبدأ باعلان مبادئ رائعة وتنتهي بهوس حماية نفسها الذي يصبح مبرر وجودها حتى ولو ذهبت ضد مبادئها .

فسحقت أية تظاهرة ذات طابع استقلالي في الجمهوريات ( كذا ) ، ووضع الآلاف من سكان جورجيا وأرمينيا وأوكرانيا ودول البلطيق في المعسكرات ، مثلهم في هذا مثل الروس أنفسهم ، لكن لأسباب أخرى تتعلق بعواطفهم الوطنية . وصولاً الى نقل شعوب بكاملها

من أراضيها الى أراض أخرى ومنح " حكمهم الذاتي " ( الكاراتشي ،والكالمنسوك ،والتشيشين ،والأنغوش ،والبالكار ،والمان الفولغا وتاتار الكرمية ) ،وذلك بحجة أن في هذه الشعوب عددا من حالات الخيانة !

بعد الحرب العالمية الثانية ، فتح المجال أمام الاتحاد السوفييتي لكي يلعب دوراً عالمياً كدولة كبرى . وبطبيعة الحال ،وتماشيا مع الأيديولوجية المعلنة ،لا يمكن أن يكون هذا الدور خطابيا على الأقل ،الا في صالح " الشعوب المضطهدة " و" والطبقات المسحوقة ". على المستوى السياسي ،كان الاتحاد السوفييتي بحاجة ماسة لحلفاء في القارات الأخرى . وقد وجد في حركات التحرر الناهضة ضد الاستعمار وفي الحركات اليسارية ،حليفاً طبيعياً ضد عدو مشترك . مثلما كانت هذه الحركات بحاجة الى دعم دولة كبرى تقدم لها السلاح والدعم المادي والمعنوي . حلف طبيعي تقرره مصالح مشتركة . لكن السلطة السوفييتية في هذا لم تكن تدعم أفكارا نبيلة أو انسانية الا بالمقدار الذي يخدم هذا مصالحها في صراعها مع الغرب . وكانت تستفيد من هذا التحالف لتوظيفه في اعلامها ودعايتها النشطة على المستوى العالمي والتي تصور الواقع بطريقة فجة ،مبسطة ومانوية .

اذ كيف يمكن تصور ان هذه السلطة التي تقمع الشعوب السوفييتية نفسها وتضطهد أوروبة الشرقية وتوقع اتفاقية مع هتلر لتقاسم بولونيا وضم دول البلطيق وأخيرا تتدخل في افغانستان بسبب مئات الآلاف من الضحايا وملايين المشردين ،هي نفسها رائدة التحرر والحرية في العالم ؟

بالطبع لا ننسى الدور السلبي جدا ( البعض يراه ايجابيا جداً ! ؟ ) ،للثنائية على المستوى العالمي . فكل معسكر كان يرى " الشر " خارج حدوده وحدود أصدقائه ،يذكر هذا بموقف النظام السوري من حقوق الانسان في .... العراق وموقف النظام العراقي من حقوق الانسان في .... سورية ! ( والحديث عن مواقف المعارضة في كلا البلدين أكثر من سارية ) .

وعندما تحولت الحركات القومية واليسارية الى سلطات في بعض دول العالم الثالث ، اتخذ التحالف مع الاتحاد السوفييتي ابعادا جديدة غير بعدها السياسي : اقتصادية وعسكرية وأيديولوجية . وبغض النظر عن الاسباب المحركة للموقف السوفييتي ،فان الدعم العسكري والاقتصادي كان له بعض الايجابيات . أما البعد السياسي والايديولوجي فكان سيئاً على طول الطريق . اذ أن النموذج السوفييتي أصبح مرجعاً للانظمة التي تدعي جلب " السعادة " ( أيضاً .. ! ) لمواطنيها . كما أصبح النموذج " التقدمي " في

العالم الثالث نسخة سوفييتية عالم ثالثية تختلف باختلاف البلدان وثقافتها وتاريخها ،لكن تجتمع كلها على حكم الحزب الواحد وتبني أيديولوجية تورجية مشوهة للتاريخ ومبسطة للواقع وسيطرة الدولة على النشاط الاقتصادي بشكل بيروقراطي فج ، وتعميم القمع وتبرير أيديولوجياً من أجل التقدم والتنمية ومحاربة الامبريالية ... الخ .

لقد وجدت هذه الانظمة والحركات والايديولوجيات المتحالفة لها في الصراع بين المعسكرين مبرراً أيديولوجياً لوجودها . اذ أنها أصبحت ضمن المخطط النظري السوفييتي في معسكر التقدم والاشتراكية ( أي " الخير " بحسب معيارها ) ضد معسكر الرجعية والامبريالية ( أي " الشر " بحسب نفس المعيار ) . الأمر الذي يعني أن على قوى اليسار والتحرر والتقدم وما شابه دعمها والا أصبحت في الخندق الآخر . وتهافت هذا النطق لدرجة أن أحزاب التقدم وحركاته وسلطاته بعد أن انتظرت وانقسمت أصبحت تتهم بعضها البعض بالانتماء للمعسكر الآخر أو مساعدته ،لانها أصبحت عاجزة عن الخروج من هذا المخطط وقواميسه العتيقة .

وباعتبار أن لا وجود لرأي عام ولا صحافة حرة ولا معارضة في الاتحاد السوفييتي ، فان كل التجاوزات وانتهاكات حقوق الانسان يمكن أن تُغطى بسهولة دون أي ازعاج من طرف الحليف الأكبر الذي يتبع نفس السياسة . فالتحالف مع السوفييت أبسط بكثير من التحالف مع الدول الغربية التي يحكم أنظمتها الديمقراطية ،كان للصحافة والمعارضة والرأي العام دورها في انتقاد السياسات والحكومات هنا وهناك في الداخل كما في الخارج .

## الحركة الشيوعية والايديولوجية الشيوعية :

لقد انهارت أنظمة أتت لتجلب السعادة للانسان ، وتفتت أحزاب كانت تعد في رحمها الملايين ، وجرى التخلي عن الماركسية - اللينينية وديكتاتورية البروليتاريا والتخطيط المركزي للاقتصاد وسيطرت الحزب على الدولة ... الخ . أي باختصار كل الأفكار المركزية للحركة الشيوعية . فما هو مصير هذه الحركة ؟

ثمة من يرى أنها في قيد الاندثار . وهناك من يرى أنها تمر بمرحلة أزمة سوف تنهض منها . لكن بغض النظر عن الاستمرار المادي لأحزاب شيوعية هنا وهناك ،فأية أيديولوجية مغلقة تستمد شرعيتها من نفسها وتقيم مرجعها بذاتها ،يمكن لها الاستمرار ولفترات طويلة . اذن بغض النظر عن الاستمرار المادي يبقى مشكلة المشروع التاريخي الذي تحمله . تاريخ هذه الحركة مترابط عضوياً مع تاريخ الحزب الشيوعي الروسي ومؤسسها وقائدها

ضمن اطار الأممية الثالثة . هذه الأخيرة تشكلت بدفع من ثورة أكتوبر لتعبر عن قطيعة مع الأممية الثانية . قطيعة تنظيمية وفكرية وسياسية . فاحزاب الأممية الثانية كانت تتمسك بالديمقراطية كنظام سياسي ،ولا تعتقد بامكانية جر المجتمع الى الاشتراكية بالقسر وترفض سيطرة الحزب على الدولة ،والتخطيط المركزي كما كانت ترى ان العبور لنظام اشتراكي سيتم تدريجياً مع تطور المجتمع وقواه المنتجة وثقافته وليس من " فوق " .

نشأت اذن هذه الحركة في أوروبة من انشقاقات الاحزاب الاشتراكية . وفي خضم أوروبة بفضل صدى ثورة أكتوبر و " الأرساليات التبشيرية " الشيوعية المرسلة من الأممية الثالثة . واذا استثنينا المرحلة الأولى لقيامها ،حيث كانت تتمتع بعض الأحزاب الأوروبية باستقلالية وتمتلك مفكريها وتجربتها الخاصة ،فيمكن القول أنها اكتسبت هويتها تحت حكم ستالين الذي مارس عليها ،مثلما فعل بالحزب الشيوعي والمجتمع السوفييتي ،عملية تطبيع وتطويع أدى الى جعلها ملحقاً مادياً بالسلطة السوفييتية كقدمة لالحاقها فكرياً . فصفى ضمنها العقل النقدي ،وطبع الخطاب السياسي بما يخدم حماية السلطة الاشتراكية الأولى التي كانت ترى العالم من وجهة نظر استمرارها واستمرار أيديولوجيتها . ( أحد شروط العضوية في الأممية الثالثة ينص على الدفاع غير المشروط عن الاتحاد السوفييتي ) .

وباعتبار أن تاريخ الفكر السياسي لا يمكن عزله عن التجربة التاريخية التي أستلهمه ، فالتفريق بين الماركسية ـ اللينينية والشيوعية من جهة والستالينية من جهة أخرى ،مجرد وهم، بمعنى آخر ،الماركسية ـ اللينينية هي الصيغة الستالينية للماركسية والتي عممت على الحركة الشيوعية بأسرها ،مثلما أن الماوية لم تكن الا تنويعاً على الصيغة الستالينية . ضمن هذا الفهم لا يمكن اعتبار المشروع التاريخي للشيوعية واقعياً الا ضمن الصيغ القائمة في الأنظمة الشيوعية ـ الاستبداد السياسي والاقتصادي والثقافي .

أما الشعارات الانسانية الكبرى التي رفعتها هذه الحركة ،كالحرية والمساواة والعدل ... الخ ،والتي قدم من أجلها عشرات الألوف من المخلصين حرياتهم وأرواحهم وجهودهم ،فهي على النقيض من النتائج التي وصلت اليها البلدان التي حكمتها احزاب شيوعية .

ثمة خلل فكري في العمق يأتي من الطابع المثالي للأيديولوجية الشيوعية التي تصور حلولا مطلقة لمشاكل العالم بنا ً على مخطط مبسط ، لانها ً الاستغلال ،تلغي الطبقة المستغِلة . وحتى تلغيها تستعيض عنها بسلطة مطلقة للطبقة المستَغَلة ريثما تنتهي الطبقات . لكن الطبقة المستَغَلة لا يمكن أن تصبح كلها في الحكم ،لذلك يمثلها حزبها الذي هو بالضرورة طليعة الطبقة ، وللطليعة قيادة وللقيادة قائد ...

وكأن اكتشاف الداء وحده يكفي لاكتشاف الدواء . كمثل الطبيب الذي يكتشف التهاباً في الكبد فيقرر استئصاله ( اجل ليكحلها فعماها ) . هذا على افتراض أن التشخيص كان دقيقاً .

لقد وصفت الأيديولوجية الشيوعية نفسها بالفكر العلمي . ويبدو من الغرابة الحديث عن فكر علمي عندما تتمسك الأحزاب الشيوعية بالماركسية - اللينينية كمبدأ مقدس . فأي تمسك بايديولوجية مصادر للفكر العلمي . فكيف اذا كان هذا المبدأ أو " النظرية " مرتبطة باشخاص ، مهما علت قيمتهم الفكرية ، هم أنفسهم ليسوا مسؤولين عن صياغة هذه النظرية . ناهيك عن مدى صحتها .

لاشك أن ماركس كان أحد المفكرين اللامعين في القرن التاسع عشر وأهميته تأتي بشكل خاص من اسهامه في المعرفة كباحث وليس من كونه منظراً أو قائداً سياسياً أو مبشراً بغد أفضل . لكن نتاجه الفكري لا يمكن أخذه ككل ودون تمييز . أولاً ، لان فكره نفسه تطور مع الزمن . وثانياً ، انه نتاج عصره ، والرأسمالية التي درسها ، هي الرأسمالية الأولى التي خضعت لتغييرات عميقة على كل المستويات . وثالثاً ، وخاصة ، أنه منذ وفاته ظهر العديد من المفكرين ، لا يقلوا عنه أهمية ان لم يفوقوه ، عمقوا وأسسوا ابعاداً جديدة لرؤية المجتمع البشري والظواهر الاجتماعية والانسانية : منهم من يعتبر نفسه ماركسياً ( لوكاش ، غرامشي ، هربرت ماركوز ، جيورجي ماركوز ، ادورنو ... الخ . وليس من المصادفة ان هؤلاء المفكرين اللامعين كانوا على قطيعة مع الفكر الماركسي - اللينيني الرسمي الذي كان نسخة مشوهة ومبسطة لفكر ماركس . لكن الكثير من المفكرين غير الماركسيين ، أضافوا على الفكر والمعرفة الانسانية ما يفوق بكثير الماركسيين كفرويد ، بغيير ، ليفي ستروس ، دوركهايم .. وغيرهم الكثير . لقد وصلنا الى عصر أصبحت فيه العلوم الانسانية على درجة هائلة من التعقيد والتطور بحيث أنه من العبث التوقف عند مفكر واحد* لفهم الانسان والمجتمعات البشرية بنيتها وآليتها .

البرستـرويكـا .

---

البرسترويكا ليست تجديد للاشتراكية . انها خروج من الاشتراكية باتجاه النظام الرأسمالي والديمقراطية . وهي بالعمق اقرار واعتراف بفشل التجربة الماضية وعودة لطروحات أحزاب الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية .

---

* أو مدرسة واحدة .

لقد أمكن لهذه التجربة أن ترى النور بفضل عاملين :

١ ـ وصول النظام بمؤسساته وآلياته الى أزمة عميقة وشاملة لا يستطيع الخروج منها دون تغيير جذري .

٢ ـ المركزة الشديدة للسلطة بايدي المكتب السياسي والأمين العام ، التي سمحت لغورباتشوف أن يفتح الآلة الهرمة والبيروقراطية ، لكن الطبقة للحزب في مسار جديد دون أن يعلن منذ البداية اتجاهه ، فبعد أن استفاد من التغيير العميق لتركيب المكتب السياسي بسبب الوفيات المتلاحقة لاعضائه الهرمين خاصة ، ثم ازاحة الورثة المتبقين ( رومانوف وغروميكو ) ان نجاح هذه التجربة أمر ايجابي للشعوب السوفييتية وللعالم بأسره . وليس صحيحاً على الاطلاق انها اتت بمشاكل تتظاهر هنا وهناك ، كالمشاكل القومية والمشاكل الاجتماعية . فهذه المشاكل كانت موجودة بعمق وتظاهرت على الملأ عندما سمح لها بالظهور . لقد أعادت البروسترويكا للمجتمع السوفياتي بعده الطبيعي ، اذ سمحت له ان يظهر على حقيقته كما هو بعد عشرات السنين من التزوير والكذب والاخفاء والدعاية الثقيلة . ومن الطبيعي والحال هذه أن يسارع بعض اليساريين جداً الى اتهام البروسترويكا بضرب منجزات الثورة الاشتراكية الأولى . وكأن هذه الثورة أعطت ماكان مأمولاً منها . اذ لو كان الأمر كذلك لما سارعت الغالبية للتخلي عن هذا النظام وادانته .

من جهة أخرى ، أي تغيير عميق في بنى وآليات النظام السياسي والاقتصادي لا بد أن تترافق بحالة اضطراب وخلل ، ريثما يتأسس النظام الجديد ويتوطد . هذه المرحلة العابرة لا بد منها والا فان أي تغيير يصبح مستحيلاً .

على المستوى الدولي ، أدت البروسترويكا الى نتائج ايجابية هامة قلما عرفنا مثلها في التاريخ في هذه المدة القصيرة نسبياً : تحول دول أوروبة الشرقية الى نظم ديمقراطية وخروجها من النير السوفياتي ثم التقدم الكبير في الحد من الأسلحة النووية الاستراتيجية وحتى في نزع السلاح التقليدي الأمر الذي انعكس ايجاباً على سياسات بعض الدول الغربية الهامة حتى قبل حرب الخليج ( بريطانيا ، فرنسا ، المانيا الغربية ... ) . وأيضاً حل المشاكل الأقليمية العالقة منذ زمن بعيد ، أو توجهها للحل ( كمبوديا ، ناميبيا ، انغولا ، افغانستان ، نيكاراغوا ) . حتى الغاء نظام التفرقة العنصرية لا يمكن عزله عن التغييرات في أوروبة الشرقية . كما حركت البرسترويكا التيار الديمقراطي في العالم ، لا سيما من خلال المثل التي أعطتها ومن خلال حرمان الاتحاد السوفييتي لبعض الدول من الدعم السياسي والعسكري الآلي ، تفتحت بهذا أفاق التغييرات ( كونغو ، مدغشقر ، اثيوبيا ، الجزائر ... )

ولا ننسى أن وحدة اليمن كان في خلفيتها التحول العميق في السلطة اليمنية التي تأثرت كثيراً في التغييرات في الدول الشرقية ، عدا عن الأمل الكبير الذي فتحته التغييرات في الرأي العام العالمي ،والديناميكية التي أطلقتها في السياسة الدولية .

يبقى أن البعض يرى في هجرة اليهود السوفييت الى اسرائيل النتيجة الوحيدة للتغييرات . ولهذا يقيم هذه البرسترويكا سلبياً . لا شك أن هناك آثاراً سلبية لهذه الهجرة التي ستخلق وضعاً ديمغرافياً جديداً في غير صالح الفلسطينيين والعرب ، لكن لا يجوز أن نرى العالم من " بخش الأبرة " .

بعض الاستنتاجات :

---

١ ـ ليست الحركة الشيوعية الأمرحلة صغيرة جداً من التاريخ الانساني الطويل الذي عرف الكثير من الحركات التي ادعت الوصول للحقيقة المطلقة وبشرت بعصر جاهزة للسعادة البشرية ،لكنها انتهت الى الفشل .

٢ ـ لايمكن لصق الأفكار الانسانية التقدمية ( بالمعنى السليم للكلمة ) والتحررية بحركة سياسية . فهذه الأفكار مستقلة وهي ملك لكل من يريد . واعتبار أن الشيوعية متماهية مع هذه الأفكار ليس صحيحاً لا من خلال تجربتها ولا في الواقع .

٣ ـ ان تراث الحركة الشيوعية ليس مشرفاً للدرجة التي يرغب البعض تصويرها . ومن الخطأ اعتبار أن نضالات ملايين البشر المنتمين لهذه الحركة كان من أجلها . انه انما كان من أجل عالم أكثر عدالة ،أكثر حرية وأكثر انسانية .

٤ ـ لذلك يجب ادانة التجربة السوفييتية مرتين ، مرة لما فعلته وللنتائج التي توصلت اليها وللوسائل التي استخدمتها . ومرة لانها فعلت ذلك باسم شعارات الحرية والعدالة التي تسعى اليها البشرية الآن وفي المستقبل .

يقلم : ب . ش ٣٠

تموز ١٩٩١

## (( مع العدد السابق من حوارات ))

بادئ ذي بدء ، لابد من تسجيل اعتزازي بأهمية مثل هذه النشرة ، وأهميتها تابعة من فرصة التفاعل والحوار التي تتيحها ، سيما وانها تروم أن تكون أوسع من نطاق محدد بعينه ، وأهمية الحوار تابعة بدورها من امكانية أن يكون مثمراً ، وهذا يتطلب سعة الصدر والاستعداد لسماع الرأي الآخر ، مهما كان قاسياً ، فكثيراً ما نجبر على الرضوخ لمبضع الجراح على أمل أن يكون به العلاج الشافي ، وهذه حالة تنطبق على الكل وليس فقط على طرف محدد ، ومن هذا المنطلق أبدي الملاحظات التالية :

بالنسبة للعدد ( ٢ ) من " حوارات " فلقد تضمن العديد من المداخلات ، ركزت بمعظمها على التجربة السوفياتية واللينينية ثم الوضع العربي والظاهرة الاسلامية فيه ، وجاءت هذه المداخلات متدرجة من حيث الأهمية والعمق ، بشكل صاعد من الأقل أهمية وعمقاً الى الأكثر فالأكثر ... وهكذا ، فقد جاء " المقال الأول المعنون بـ " التجربة السوفياتية كمنطلق لتحديد سمة العصر " هزيلاً وسطحياً ولقد اتسع أفقياً على حساب العمق المطلوب ، وجاءت نتائجه واستخلاصاته مضطربة ومشوشة وفاقدة لمصداقيتها ودقتها العلمية والمعرفية ، فعندما تكون المقدمات خاطئة ، لابد أن تكون النتائج التي تنبني عليها خاطئة ، وهذه النتائج الخاطئة تصبح مقدمات خاطئة لنتائج أخرى أكثر خطأ ... وهكذا. ويمكنني أن أدلل على ما ذهبت اليه ببعض الأفكار المقتبسة من المقال المذكور ، ثم أبين رأيي حولها .

١ - بشأن أحزاب الأممية الثانية ، من المعروف - حسب نقد لينين لها - انها تخلت عن وضعيتها الثورية فيما يخص التغيير الاجتماعي واتجهت الى منطق اصلاحي . أما ما عزاه صاحب المقال اليها من أفكار مثل : " تجاهل العامل القومي " و " الغاء دور الفرد " و " تهميش أي تأثير للعوامل الروحية الانسانية " و " رفض النزعة التاريخية ... " وصولاً الى " وصف الواقع القائم دون تحليله ... " ..... الخ فان مثل هذه الأفكار ، ظهرت فيما بعد عندما سيطرت النزعة الستالينية على منطق الأحزاب الشيوعية . هنا يقدم الكاتب خليطاً من الأفكار المشوشة ويعزوها الى جهات بشكل ينقصه الدقة ، الأمر الذي يقوده الى استنتاجات خاطئة .

أيضاً هنا ، يقول عن أحزاب الاشتراكية - الديمقراطية في أوروبا انها من أنصار الوضع القائم " ومتكيفة مع الواقع الرأسمالي في اطار اصلاحي ..... " .. حيث يلاحظ

اتجاهها الى ( الفكر الاقتصادي ) ، والمحتية المهدوية للخلاص .. " (ص٥) . هنا نلاحظ عدم تفاهم وغموض الاستنتاج ، اذ ماهو معنى " فكر اقتصادي " هنا ؟ ماذا يقصد به ؟ أيضاً ماهو معنى " حتمية مهدوية " ؟ هنا لا يهمني الا أن أقول ان مايطرحه بهذا الخصوص هو خليط من الافكار المشوشة وغير الدقيقة ، لذا جاءت هذه الأفكار بدون كبير فائدة .

٢ ـ يقول عبد لينين انه لم يحاول اجراء قطيعة مع أفكار أحزاب الديمقراطية ـ الاشتراكية الأوروبية الا بعد عام ١٩١٤ وفي كتابه الدفاتر الفلسفية . هنا لايهمني ان كان لينين قد قطع مع هذه الأحزاب أو غيرها في ذلك التاريخ قبله أو بعده ، لأنه ليس هنا مكان مثل هذا الجدال . مايهمني هنا هو فقط الدقة العلمية والتاريخية في البحث . فكتاب لينين " الدفاتر الفلسفية " ليس فيه طرح سياسي أو أيديولوجي مباشر ، وليس فيه جدال مع أحزاب اشتراكية ـ ديمقراطية أو غيرها . فيه فلسفة وفكر ، فيه تتبع لمقولات هيغل الفلسفية ، خطوة بخطوة ومن ثم التعليق عليها ، اتفاقاً أو اختلافاً . ( وبالمناسبة هذا الكتاب مترجم الى العربية ، فقد ترجمه وقدم له وعلق عليه المرحوم الياس مرقص ومن اصدار دار الطليعة في بيروت وآخر طبعة ظهرت له بثلاثة أجزاء " من الحجم المتوسط ) .

٣ ـ في ص٦ يقدم فكرة غير دقيقة عن المادية وخصوصاً حول مايتعلق بما يوصف ب " مادية ميكانيكية " ويعزوها بشكل غير دقيق الى بعض الجهات . وهنا أحب أن أقدم التحديد والتوصيف التالي عن المادية اعتماداً على الياس مرقص ، فالمادية تمرحلت من حيث دقة التوصيف حسب التسلسل التاريخي التالي :

ـ مادية قديمة خصوصاً عن بعض الفلاسفة مثل : ديموقريطس وهيراقليطس .

ـ مادية ضمنية خصوصاً عند علما " الطبيعة .

ـ مادية ميكانيكية خصوصاً في القرن الثامن عشر عند الفلاسفة الموسوعيين : ديدرو ، هولباخ ، هيلفيتيوس وأيضاً عند فيورباخ .

ـ مادية مبتذلة عند ماخ ، بوخنر ، مولشوت .

ـ وأخيراً مادية ديالكتيكية عند ماركس ، انجلز ، لينين ، تستوعب كل الماديات السابقة وتتجاوزها بآن .

٤ ـ كثيراً مايقدم الاستنتاجات الجاهزة دون أدنى محاولة للتدليل عليها ، وكأنها من الأمور البديهية التي ليست بحاجة الى برهان . مثل قوله ان التجربة السوفييتية قدمت " رأسمالية دولة " . ان هذه المسألة هي مسألة خلافية ، وهي بحاجة الى تدليل واثبات ، فلماذا هي

رأسمالية دولة ؟ . لماذا لم تكن اشتراكية دولة ؟ أو نظاماً اشتراكياً بشكل عام ، أو أي نظام آخر . وحول هذه النقطة هناك الكثير من الطروحات والتنظيرات ، فعلى سبيل المثال : يقول د . سمير أمين في كتابه " مابعد الرأسمالية " ان التجربة السوفييتية وبالتالي تجارب بقية دول شرق أوروبا ، هي تجربة " اشتراكية محققة " على الرغم من أنه يصطرع في داخلها ثلاثة قوى : اشتراكية ، ورأسمالية ، ودولتية والذي انتصر هو النوع الثالث من تلك القوى وهي قوى الدولتة التي قادت ، مع وجود ظروف أخرى وعوامل أخرى ، خصوصاً خارجية ، تحطيم ذلك النموذج أو تلك التجربة . ان الحرص على طهر ونقاوة الفكرة الاشتراكية وصدقيتها والحيلولة دون تشويهها ، لا يقتضي تجاهل ما تم وحدث على أرض الواقع من تجارب هنا وهناك في العالم .

٥ — يستمر صاحب المقال في استنتاجاته الغريبة وغير الدقيقة ، اذ يقول : " ان البلدان التي ينتصر فيها التصنيع تتجه دائماً ، الى التفكير الوضعي والى التخصص ، والى رفض النزعة التاريخية والفكر التركيبي ، والى تغليب الجانب المادي في التفكير ، ورفض النظرة الموحدة للانسان في جانبه الروحي والمادي ... " . وهنا أتساءل ، أين نشأت هذه العقولات ، أي " النزعة التاريخية والفكر التركيبي ، والنظرة الموحدة للانسان ... " ؟ . هل هي موجودة ؟ هل هي موجودة في البلدان المتخلفة صناعياً أم في الدول المتقدمة صناعياً ؟ .. ثم لماذا هذه الحتمية " دائماً " ؟ .

ان بلدان العالم الثالث والتي لم " ينتصر " فيها التصنيع الى حد الآن ، وعجزت عن انجاز عصر انوارها حتى تاريخ اليوم وهذا العجز يعني ، ضمن مايعنيه ، غياب المبادئ والعقولات العلمية والفكرية الفاتحة من مثل العقولات المذكورة أعلاه .

ويقول أيضاً — مستنتجاً — " انه كلما زادت أهمية البلد ... ، أو كلما كان دولة عظمى ، كلما زاد تداخل العامل الدولي وتأثيراته في الوضع الداخلي " . مرة أخرى وهنا لا أريد ان أعلق ، فقط أود أن أطرح هذا السؤال : هل الكويت مثلاً ، أو لبنان ، أو بنما أكبر أو أهم من الاتحاد السوفييتي السابق ياترى ؟ .

٦ — وبنا " على تدخل العامل الدولي الخارجي وتأثيره على أي بلد من البلدان أو على أية دولة من الدول ، يستنتج صاحب المقال امكانية أن تكون الديمقراطية " سلاح ذو حدين " .

ان هذا الاستنتاج يبرر لأي سلطة قمعية ، الاستمرار في قمعها رغم كل التغييرات الدولية ، ورغم ان رياح الديمقراطية أخذت تهب على العالم . هذا من جهة . ومن جهة

أخرى ان للديمقراطية معنى واحداً وهو لا يتجزأ أو يفصّل على مقاس كل بلد على حده أو على مقاس كل حاكم ومزاجه . ثم ان الديمقراطية انجاز يقع تحقيقه على عاتق أهل كل بلد على حده بالدرجة الأولى ثم تأتي العوامل الإخرى ( الخارجية مثلاً ) اما ان تساعد على تحقيق هذا الايمان واخراجه الى حيز الوجود ، أو ان تكبحه وتلجمه . أما اذا بقيت أنظارنا شاخصة على العامل الخارجي ( على الغرب الامبريالي ) منتظرين منه تحقيق الديمقراطية لنا فهذه مسألة أخرى وهي ليست بحاجة الى كبير عناء من أجل كشف خيبة أمل من يراهن عليها .

٧ ـ في ص١٣ ، يتطرق الى طرح فكرة المشروع الحضاري المضاد للمشروع الحضاري الغربي ، وكيف ان موسكو ( أي الاتحاد السوفييتي السابق ) لم تستطع ان تكون مركزاً عالمياً منافساً للمركز الامبريالي الغربي . وهذا المركز المنافس للمركز الغربي ، لم يكن يوماً موجوداً الا في شرق المتوسط ومنذ الامبراطورية الرومانية . ولهذا السبب سارع الغرب ، عند انتهائه من تفكيك الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية ، الى ضرب العراق خوفاً من احيا " المركز الشرق اوسطي " المنافس للغرب " فالطموح القومي العربي ، المجتمع كهوية حضارية مبنية البعد الثقافي الاسلامي ، يمثل خطراً جسيما على التوازنات العالمية القائمة ... حيث ان الغرب لم ينسى للآن ، وصول العرب الى قرب باريس في ( بواتييه ) ، ( هنا النقل حرفي ) الذي عبر عنه ( غورو ) لما زار قبر صلاح الدين بعد معركة ميسلون ١٩٢٠ " ها قد عدنا ياصلاح الدين " . ويضيف : " ومن هنا يجب أن نفهم الهستيريا الغربية المعادية للاسلام حالياً " " والتي تعبر عن مستوى الخطر الكامن الذي يمثله العرب خصوصا والمسلمون عموما " . . " ... وعلينا أن نفهم في هذا الأطار ، النزعات العنصرية الموجهة ضد الأجانب في فرنسا وألمانيا ... والصمت الغربي التواطئي تجاه ماتقوم به الاصولية الهندوسية تجاه المسلمين في الهند ، والسياسة المتشددة الأمريكية ـ الاسرائيلية تجاه امكان وصول الباكستان الى القنبلة الذرية ( القنبلة الاسلامية ) " . ويضيف أيضاً " وهذا مايجعلنا ندرك سبب تفضيل الغرب لاسرائيل على تركيا ... " ص١٣ ـ ١٤ .

ان ظاهر هذا الكلام خداع ، فهو يظهر أنه مدافع عن العرب والمسلمين ضد الغرب الغاشم والعدواني ، وأنا لا إشك بالمقاصد والنوايا الحميدة . لكن عند التعمق في فهم هذا الكلام ، يتبين مدى اختلاط الأمور على صاحبه ، فهذا الكلام ماهو بالمآل الآخير سوى نوع من الخطاب الايهامي والتعويضي عن " ذات مجروحة ونازفة ، وكرامة مهدورة و " مبعزقة " ، ومحاولة يائسة عن سد نقص وعجز عن الفعل في عالم اليوم ( وفي ارض الواقع ) ، عالم

المغالقة . أيضا هذا الكلام ، ونوع من الخطاب الاستهلاكي الذي يحاكي خطاب جماعات الاسلام السياسي ، ليتوثبة للانقضاض على كراسي الحكم ، لهذا السبب تصوغ خطابا استهلاكيا شعبويا مليئا بعبارات الخصوصية والهوية والذود عن حياض الاسلام واعلاء كلمته ورايته وتصويره على انه المنقذ والمخلص من شرور الغرب الشيطاني الرجيم ، والعاصم ( أي الاسلام ) عن الفتنة والضلال في عالم اليوم المليء بالشرور والآثام والضياع والغواية والكفر واستغحال مبدئ الالحاد والمادية والشهوانية وعالم الملذات والشهوات ضد مبادئ العدل والهداية والأخلاق الحميدة والروح ... الخ .

ان جل مانطمح اليه ، نحن العرب في الوقت الراهن ، هو أن نتخلص من كابوس أنظمة الحكم القمعية والاستبدادية ، بالدرجة الأولى ، وان نحاول ان نصوغ برنامجا نهضويا ، قوميا ، ديمقراطيا ، علمانيا أو مايمكن أن نطلق عليه اسم برنامج ثورة قومية ديمقراطية ، تنقل هذه الأمة المأزقة من المستنقع الذي تغط فيه ، وتضعها على اعتاب العصر .

أما الحديث عن تكوين مركز حضاري عالمي أو مشروع حضاري عالمي ، يقف بوجه المركز أو المشروع الامبريالي ، فهو حديث سابق على أوانه ، هو مجرد كلام لا يسمن ولا يغني من جوع .

في هذه المناسبة أتذكر الحكاية التالية عن الأرنب وهي تعبر تماما عن وضعنا العربي في عالم اليوم . فحسب هذه الحكاية ، قيل للأرنب لماذا لا تأكل لحما مثل بقية وحوش الغابة ، فرد الأرنب ببساطة قائلا : اتركوني أسلم على لحمي ولا اريد شيئا عداه .

أكتفي بهذا التعليق ولا أريد ان أخوض في بقية المغالطات التي وردت في السياق المذكور أعلاه .

× × × × ×

* أما بالنسبة للمقال الثاني والذي يحمل عنوان " أزمة اللينينية وبديلها العودة الى الرسملة " . فانه أكثر توازنا من سابقه وأرصن ، الا أنه يكرر بعض استنتاجات سابقه وغير دقيقة ، خصوصا حول مقولة " رأسمالية الدولة " ، وحول الأممية الثانية وعلاقة اللينينية بها ، وحول أخطاء ومزالق اللينينية والحزب البلشفي . ثم ان محاولة نقده للينينية لم تكن موفقة . وحول هذا المقال ، ابدي ملاحظتين عموميتين دون محاولة الغوص فيه .

١ — ان اللينينية اصبحت ملكا للتاريخ ، ومن حق أي شخص نقدها ، شرط الالمام بتجربتها ، وأن يأخذ التاريخ والمنطق التاريخي بالحسبان . فمحاكمة أي تجربة تتم ضمن ظروفها وملابساتها ومعطياتها وواقعها ، وليس من خلال ظروف وملابسات ومعطيات وواقع أخرى

قريبة وبعيدة عنها ، هذا اذا ما أردنا أن يكون حكمنا على التجربة المعنية ، حكماً موضوعياً وعقلانياً وجدلياً .

٢ - ان صاحب المقال المذكور اعتمد كثيراً على سمير أمين وأورد كثيراً من الفقرات حتى تكون حرفية ، خصوصاً من كتابه " مابعد الرأسمالية " . وهذا أمرٌ ليس معيباً بحد ذاته ، لكن في هذه الحالة المفروض مراعاة دقة التوثيق والتنويه ليكون القارئ في الصورة تماماً ، ولكي لا ننسب أقوال الآخرين لا نفسنا من حيث لا ندري .

تبقى هناك العديد من الملاحظات حول هذا المقال ، لكنها ليست بأهمية ماذكرت ، ولا أريد أن أنشغل بها تلافياً للتكرار .

× × × × × ×

- المقال الذي يأتي ترتيبه ثالثاً وهو بعنوان " القسم الثاني من مقدمات للتقاطر " هو أكثر توازناً من سابقيه ، واستفاد من كونه مقتضباً غير مطول . أيضاً هو حمل نقد اللينينية ، لذلك فهذا العدد من " حوارات " ركز بمعظمه حول التجربة السوفييتية ، ابتدا " باللينينية ، وهذا التركيز له دلالاته النفسية العميقة ، وليست مصادفة أن تأتي المقالات بهذا الشكل ، وبهذه الحالة يلزمنا محلل نفساني كي يكشف لنا عن غور عقدنا بهذا الخصوص ، ويرسم لنا كيفية حلحلة هذه العقد والبرا " منها وتجاوزها .

في هذا المقال تركيز على مبدأ المركزية - الديمقراطية وتصويرها على أنها شر مستطير ، وأنها أس المشاكل والبلايا والمصائب التي أصابت عالم الأحزاب الشيوعية . وهنا لابد من سؤال يفرض نفسه : ان هذا المبدأ مؤلف من شقين : المركزية والديمقراطية . فلماذا التركيز على الشق الأول واهمال الشق الثاني في ممارسات تلك الأحزاب . ان الاجابة على هذا السؤال تبين لنا ان العلة ليست كامنة في المبدأ المذكور ولكن في عقلية من تصدى لتطبيقه ، أي اخراجه من حيز الامكان الى حيز الوجود ، حسب لغة الفلسفة . بمعنى آخر ، ان النصوص ، مهما كانت نوميتها ، ليست شريرة أو فاضلة بحد ذاتها ، انما المسألة تتعلق ، أساساً ، في كيفية التعامل مع هذه النصوص من قبل الفاعلين التاريخيين ، أي البشر الواقعيين ، الملموسين ، فهماً وتفسيراً وتأويلاً وتطبيقاً ... الخ .

أخيراً يبين صاحب هذا المقال بخصوص مسألة الديمقراطية في الحزب ، حسب رأيه :

" إما أن تكون ديمقراطيين ... واما أن تكون مركزيين .. ولا حل وسطاً " ص٣٠ . هذا يذكرني بقول الشاعر : نحن قوم لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

هنا نترا " ى بنية التفكير الميتافيزيقي بأوضح تجلياتها ، أسود / أبيض ، خير / شر ،

رحماني/شيطاني ...الخ . هذه العقلية ( القرووسطية ) علينا التخلص منها . فمن الأجدى أن نفهم قضايا الحياة والمجتمع فهماً تاريخياً ونسبياً ومتدرجاً ومتطوراً ، فهذه القضايا تخضع لقانون الصيرورة في نشأتها وبروزها وتطورها ،وهي ليست معطىً جاهزاً ومنشأ مكتملاً . إنما هي بحاجة الى وقت وعمل دؤوب وصراع كي تنجز بشكل قريب من المعقولية بالمعنى الاجتماعي .

× × × × × ×

- المقال المعنون بـ " رؤية أولية في الحوار بين النظرية والتنظيم " . أكثر توازناً مما سبقه وقدم رؤية معقولة فيما ذهب اليه ،رغم انه بقي يدور ضمن تضاعيف ما سبقه من أفكار . ولي حوله ملاحظة حول مقولة " الجماهير " ،فلقد ترددها كثيراً ( أكثر من ٦ مرات ) . ان لهذه المقولة دلالات سياسية ،اذ تشير الى حركة عليان سياسي في الشارع ،من حشود ومظاهرات وتحركات وتجمعات هادرة ترفع اللافتات وتطلق الشعارات تتلقى الخطب العاصفة ،هنا وهناك وتحرك الشارع ،وتقيم الدنيا ولا تقعدها . هذه الظواهر كانت موجودة في الخمسينات والستينات في بلدنا خصوصا . لكن أين نحن من هذا كله الآن ؟ لم يتبق منه شيء في ظل أنظمة الحكم القمعية التي نزعت السياسة من الشارع فتحولت الجماهير الى مجرد ناس عاديين يعملون بشكل خليط أو مزيج غير متجانس من التطلعات والتوجهات والتنظيرات . لذلك عندما نردد لفظة " جماهير " فاننا نردد شيئاً فارغاً ، أو اسماً بلا مسمى ،ولفظاً بلا معنى .

× × × × × ×

- أما المقال الآخير الذي هو تحت عنوان " أزمة العنف والارهاب في الحياة السياسية العربية " ، فهذا أكثر مواضيع هذا العدد توازناً ، وصواباً ومعقولية في التحليل ،وأنا أتفق مع ماذهب اليه تماماً . رغم مايوجد فيه ،هنا وهناك ، بعض الجمل والعبارات التي لا معنى لها ،من مثل : " ... المنظومة المعرفية للنظام " ص٤ . و " ... الطبقات الشعبية ..." ص٤ ...الخ . ورغم ترديده لمقولات عفا عليها الزمن من مثل مقولة " تقدمية " فهي على شاكلة مقولة " جماهير " لم تعد ذات مدلول متفق عليه .

× × × × × ×

وبعد : هذا نقد أولي لهذا الكراس ،ولو شئت التعمق لأنتجت كراساً بحجمه . وقد يكون في نقدي هذا شيء من القسوة . وأني لأستشعر قائلاً يقول : ماهذه الأستذة ؟

وما هذ الكلام ؟ قد يكون هذا صحيحاً . فبقدر الطموح يجب أن يأتي الاستعداد للتحمل في سبيله ، وبهذا المعنى أورد المثل الشعبي البسيط والمعبر عما أرمي اليه تماماً :

" اللي يحمل جمّال ، لازم يعلي باب الدار " .

مسائينا كبيرة ، وطموحاتنا كبيرة ، وبهذا الحجم يجب أن تكون سعة صدورنا . وهذا هو المحك الذي يفرق بين مجرد القول والاكتفاء به ، وبين القول مقروناً بالفعل . تكثيراً مانردد عبارة الاستعداد لسماع الرأي الآخر . لنختبر مدى مصداقية هذه العبارة ، وهل هي تعني فعلاً مانقول أم هي مجرد شعار ، كغيرها من الشعارات التي أطلقت في سمائنا .

بقلم : د . م . ح

.....

.....

.....

.....

.....

.....

## وجهـــــــة نظـــــــر

صدرت نشرة حوارات مؤخراً ، آملين أن تستمر ، وأن تكون منبراً حراً وخلاقاً لحرية الرأي والفكر ، وصوتاً حضارياً للتنوع والاختلاف ، لعلها تساهم في الوصول الى حالة ارقى ، معرفياً وثقافياً وسياسياً وتنظيمياً .

في العدد / صفر / من النشرة ، وفي المقالة المعنونة بـ " كلمة أولى على طريق الحوار " ، والمقالة المعنونة بـ " أفكار أولية على طريق المقاربة بين الشعار واحتياجات الواقع " بقلم " موفق " ، تم طرح تغيير اسم الحزب . ومما لاشك فيه أن هذا الرأي حق مقدس لأصحابه لا يحق لاحد الاعتراض على طرحه . وهنا نريد التوقف قليلاً . لعل ذلك يفيد من حقنا أن نتساءل ، هل أصبحت كلمة أو تسمية " شيوعية " حملاً ثقيلاً على كاهل حامليها وعبئاً عليهم ؟ هل أصبحت عاراً على أصحابها بعد أن كانت شرفاً وسمة للشرفاء والمناضلين ضد الظلم والاستغلال والقهر والاستبداد ؟ هل بهزيمة " الماركسية - اللينينية " والاشتراكية المحققة فيما كان يسمى دولاً اشتراكية خطأ ، هل بهذه الهزيمة توقفت الحياة أو تلاشى الكون وماتت الشعوب والأمم وانجازاتها الحضارية ؟ لا أظن ذلك ! الحياة قائمة ، والكون باق ، والأمم والشعوب لم تمت ، والفلسفات الكبرى لم تندحر ، بل ربما تنجز الحضارة البشرية فلسفات جديدة أخرى غايتها أيضاً خلاص الانسان من جميع أشكال العبودية المادية والروحية . يجب أن تبقى الارادة ما بقيت المعرفة . هل وصلت الهزيمة الداخلية الى درجة التخلص من التسمية ؟ هذه النوعية الدارجة ، والتي على الأغلب - سببها الوقوع تحت سيطرة اعلام ما يسمى ( النظام العالمي الجديد ) والذي تديره الليبرالية الجديدة ، أيديولوجية رأس المال العالمي الامبريالي الغربي الأمريكي . ولا أخفي القول بأن من يفكر بأن المشكلة هي التسمية وأن أزمة الواقع هي من الأسم وبتغييره يتم انقاذ الواقع من أزمته ، دلالة على مشكلة في العقل السياسي والمعرفي . وعلى كل هي فعلاً مشكلة قديمة جديدة عندنا نحن الماركسيون العرب . جميعنا نسمع في وسائل الاعلام حالياً ذكر أسماء لأحزاب جديدة ، غيرت اسمها ، يتم تذييلها بـ ( الحزب الشيوعي سابقاً ) . هل يخفي الانسان نفسه وراء أصبعه . يقول / موفق / " هذا الاسم جزء من العقل صدّر الينا ، وهو جزء من مبررات ارتباطنا بالأممية الثالثة ويفكر الحزب الشيوعي السوفييتي " . أولاً ، لا أعرف ماذا يقصد بجزء من العقل صدّر الينا . وثانياً الشيوعية اسم وفكرة وصورة للعالم ليس مصدرها الأممية الثالثة والحزب الشيوعي السوفييتي

حسب معرفتي . الشيوعية اسم وفكرة مصدرها ماركس وانجلز . الشيوعية هي الصورة ، الفكرة ، التي تخيلاها ، للعالم وفق الفلسفة التي اعتمداها في تفسير هذا العالم . وكلنا نتذكر البيان الأول المعنون بـ " البيان الشيوعي " . هذا رغم أنني لست من الذين يبكون على الأطلال البائدة كثيراً ، ولست بطلق الرومانسية .

لقد قال / موفق / " الأحزاب عادة ترتبط ببرامجها المرحلية والقريبة وليس بشعاراتها التي لا يدري الا الله متى ستحققها " .

الشيوعية شعار لا يدري الا الله متى سيتحقق . أليست دولة الحق والقانون هدفاً لا يدري الا الله متى سيتحقق في بلاد العرب ؟ شعار حقوق الانسان أليس شعاراً لا يدري الا الله متى سيتحقق في دول تلغي الفرد وتسحق وجوده البشري ؟ العدل الاجتماعي والاشتراكية أليست أهدافاً لا يدري الا الله متى ستتحقق ؟ الوحدة والتقدم ؟ هل يحق لأحد مصادرة الحلم للفرد أو للجماعة أو للأمة ؟ مابالنا اذا كان الحلم انسانياً وحضارياً وناتجاً ؟ والديمقراطية أليست أهم الأهداف المرحلية والتي لا يدري ألا الله متى تتحقق في دول الاستبداد ؟ الآن كل من في الكون يطرح الديمقراطية وحقوق الانسان ، من الامريكان الى الأمم المتحدة وأوروبا . أنظمة الحكم أيضاً تطرح الديمقراطية بطبعاً على طريقتها . والمعارضة أيضاً تطرح الديمقراطية . يلتسين طرح الديمقراطية وأول ماعارسها باجراء الحظر على الحزب الشيوعي السوفييتي ! لا حظوا الديمقراطية تعني حرية المعتقد والفكر ، حرية الصحافة ، حرية تشكيل الأحزاب ... الخ ولا يحق للشيوعي أن يكون شيوعياً !

أما فيما يخص تسمية " الماركسية ـ اللينينية " ، فمما لا شك فيه هو أنه لا ماركس ولا لينين لم يوصيا بهذه التسمية مطلقاً . انها تسمية قادمة عبر الصفاة السوفييتية وهي شكل من أشكال التبعية لما كان يسمى الحزب الشيوعي الأم . لكن للانصاف يجب التمييز بين الماركسية واللينينية . اللينينية مع احترامنا الكبير للبلشفي العظيم ، هي تجربة محض سوفييتية ، حيثياتها سوفييتية . وبالتالي هي تجربة من تجارب الشعوب تقدم للبشرية مثلما تقدم أية تجربة ثورية انسانية أخرى في العالم / كالثورة الفرنسية مثلاً / . أما الماركسية فأرى أنها أمر مختلف . انها من أهم وأحدث الفلسفات الكبرى التي أنجزتها البشرية ، والقادرة على تفسير العالم ، لا بل تقترح طريقة لتغييره . وحتى اللحظة لا توجد فلسفة بديلة ، أكثر عمقاً ورقياً ، قادرة على تفسير شكل استغلال الانسان ، وطريقة السطو . هذا الاستغلال . وفي حال وجودها أنا مع الأخذ بها . وهنا نذكر بما قاله د . سمير أمين في كتابه الأخير " امبراطورية الفوضى " يقول : " ان الليبرالية التي تتدفع الآن بكامل طاقاتها ستنتهي

تحت ثقل التناقضات التي تراكمها . وسيظل تحدي المستقبل القائم أكثر من أي وقت مضى هو الاشتراكية أو البربرية " (ص٧٦) . كما يقول : " انه في حين ترفع عالياً راية نهاية الايديولوجيات ، يشهد الغرب خضوعاً مريعاً لخطاب أيديولوجي متفرد كما لم يكن من قبل قط " ( ص٦٩ ) . انني أرى أن الماركسية فلسفة لم تفقد أهميتها ولا أرى مايحبب فكرياً ومعرفياً اعتمادها كفلسفة من قبل الحزب ، لكن ليس كأقنوم مقدس . وفي جدليتها مثل لذلك . موجز القول : اذا كان / موقف / والذين يوافقونه الرأي يريدون التخلص من / الشيوعية / كأسم وكشعار لا يدري الا الله متى يتحقق ، ومن الماركسية كفلسفة معتمدة من قبل الحزب ، والشعارات والأهداف المرحلية الأخرى ، الاشتراكية ، دولة الحق والقانون ، حقوق الانسان ، الوحدة ، الديمقراطية ، والتي هي برأينا ايضاً شعارات أو أهداف أو أماني وأحلام لا يدري الا الله متى ستتحقق ! ماذا يبقى من الحزب الذي ننتمي اليه ؟ وماهو مبرر وجوده ؟ كان الأفضل والأنفع لموقف والذين يوافقونه الرأي تشكيل حزب جديد بإسم مغاير وبفكر وبرنامج مغاير يعتمد فلسفة مغايرة ويطرح للناس ، عندئذ وبكامل الحرية . ويحق لنا وللناس قبول أو عدم قبول الانضمام الى هذا الحزب الجديد .

ولكي لا أبدو / ولا أتمنى أن أكون / كلاسيكياً وجامداً . انني على استعداد كامل للعمل في اي حزب وتحت أية تسمية كانت اذا كان يحمل المشروع المنقذ للوطن والأمة ، مشروع التغيير القومي الديمقراطي الاجتماعي . واذا كانت التسمية هي المشكلة ، واذا كان تغيير الاسم يعيد اللحمة الوطنية لهذا الجزء من الأمة ، ويساعد على المد الشعبي والجماهيري ، ويعمل على كسر طوق العزلة السياسي عند الشعب ، ويساعد على تحقيق خطوة من أجل الديمقراطية ، واذا كان تغيير الاسم يساعد على المساهمة في بنا " دولة الحق والقانون ، ويساعد على الوصول الى شيء من العدل الاجتماعي والغاء شيء من الاستغلال والاستعباد الاقتصادي للشعب ، ويساهم في السير مسافة صغيرة من أجل حقوق الانسان ... الخ ، أنا مع تغيير الاسم . ولكني سأبقى شيوعياً ولو بقيت الشيوعي الوحيد في هذا العالم وهذا حق من حقوق الانسان وحقوقي الآدمية والبشرية .

وتبقى وجهة نظر .

بقلم : أ . ع

.....

.....

.....

( محمد سيد رصاص )



## - حول الهوية الحضارية العربية - الاسلامية -

نلاحظ في البؤر الحضارية المتميزة التي أفرزتها الانسانية عبر تاريخها ،أن هناك عقائد كبرى تترافق مع عملية تكونها ،وتعطيها جوهرها الخاص، كالبروتستانتية في العالم الغربي الأنكلو - ساكسوني أو الكاثوليكية اليسوعية في الدول اللاتينية ، والاسلام في الحضارة العربية ،والزرادشتية مع الدول الفارسية في القرن السادس قبل الميلاد .

اذا كانت الحروب البيزنطية - الفارسية قد أدت الى انقطاع الطرق التجارية العالمية البرية المارة من وسط آسيا وشرقها الى الهلال الخصيب والبحر المتوسط ، وما رافقها من صراع حبشي - فارسي على اليمن مما ولد انقطاع المواصلات البحرية في البحر الأحمر ، فان هذا كله قد أدى الى جعل مكة هي المركز التجاري العالي للمنطقة ، والوسيط الذي يتحكم بطرق التجارة الاجبارية الممتدة بين اليمن والهلال الخصيب وبلاد النيل .

ولكن ذلك لم يولد لحظة مؤاتية أتت من فراغ، وانما خلق امكانية لكي تقوم هذه المنطقة بمتابعة دورها الحضاري الذي خسرته مع سقوط بابل على أيدي الفرس في عام ( ٥٣٩ ق . م ) وما تبعه من سيطرة يونانية ورومانية - بيزنطية على المنطقة . ونلاحظ في هذا الاطار أن السيطرة الغربية أو الفارسية العسكرية - السياسية ،كان يرافقها أشكال من المقاومات الفكرية التي قدمتها المنطقة كالشكل الشرقي لفلسفة الأفلاطونية الحديثة / نومينيوس الأفامي + فيلون الاسكندراني / أو ماقدمته المسيحية الشرقية / مذهب الطبيعة الواحدة / .

لذلك فان معركة ( ذي قار ) التي انتصر فيها تحالف القبائل العربية على الفرس في عام ( ٦٠٩ م ) ،كان رداً بمعنى " ما " على سقوط بابل ،كما أن بداية الدعوة الاسلامية في العام التالي أي ( ٦١٠ م ) ،كان متابعة للفكر البابلي التوحيدي ينبوع ( مردوخ ) والذي قدمت اليهودية والمسيحية الشرقية استمرارية له . الا أن الاسلام قد قدم الهوية الخاصة بحضارة المنطقة في شكل يستفيد ويتابع الاشكال القديمة ولكن في اطار متقدم وجديد نوعياً ، يتجاوز ماقبله ،وان كان في نفس النظرة التي تقدم رؤية كلية ، مازجة بين رؤية الكون والعلاقات الاقتصادية - الاجتماعية مع مفهوم الدولة والعناصر الثقافية ،كما انها لا تفصل بين الأقانيم الثلاثة / الفرد - المجتمع - الدولة / .

الا أن المأزق الذي واجهته الدعوة الاسلامية ،أنه اذا كانت " مادة الاسلام هي العرب " كما قال عمر بن الخطاب ،فان توجهات الاسلام كانت أممية حتى وهي تساهم فتبني

انشا ° معالم حضارة خاصة بأمة معينة ،هي أمة العرب ،الشيء الذي يفسر حرص ( ابن الخطاب ) على عدم تجاوز حدود اللسان العربي شرقاً رغم انفتاح الحدود أمامه بعد ( القادسية ) وكذلك في الشمال البيزنطي ° كما نرى حذر ( عمر ) من اختلاط العرب بالفرس في العراق ،وتفضيله لزواج المسلم من المسيحية العربية على المسلمة الفارسية كما حصل ضمه مع واليه على ( المدائن ) ،أي ( حذيفة بن اليمان ) ° ولكن تجميع ( كسرى ) لقواه بعد فترة من ( القادسية ) قد اجبر ( ابن الخطاب ) على اختراق عمق الحضارة الفارسية الجغرافي ،وتحطيم اي محاولة لا ستعادة الفرس لقواهم ،كما حصل اثر معركة ( نهاوند ) ، ولو مع كثير من التوجس والحذر من هؤلا ° الفرس الداخلين في الاسلام °

أن انهيار الدولة الأموية قد كان ناتجاً ،اساساً ،عن عدم امكانية قيام دولة قومية عربية تحكم محيطاً متعدد القوميات وفي ظل أيديولوجية أممية التوجه ،الشيء الذي نلاحظه على الحركة العباسية التي كانت " بادئتها " هم الفرس وواجهتها عربية ،وهذا ما أدى الى فترة مضطربة بدأت بالصراعات مع أبي مسلم الخراساني ،ثم الحركة الشعوبية الفارسية وما سمي بالزندقة ،وصولا الى البرامكة في عهد ( الرشيد ) ،حتى انتهت الامور بانتصار الفرس على العرب ووصولهم لاستلام دفة الدولة السياسية مع ( المأمون ) ° ونلاحظ ،هنا ،ان ضرب النفوذ الفارسي في عاصمة الخلافة ،عبر المعتصم وأتراكه ،ثم المتوكل ومحاولته استعادة النفوذ العربي ،قد ادى الى انشا ° دويلات فارسية على تخوم الدولة ،كما فعل ( الطاهريون ) ثم ( البويهيون ) ،ويجب النظر للحركة اليابكية في هذا التوجه القومي الفارسي العام ،ولو أخذت اشكالاً ( مزدكية ) ممزوجة بتوجهات باطنية / رأينا ملامحها الأولى مع أبي مسلم الخراساني / مما جعلها تصطدم ،رغم كل ذلك ،مع المأمون حتى اتى المعتصم وقضى عليها.

من الملفت للنظر ،أن عملية تبلور المذاهب قد تمت في فترة الاضطراب ،هذه ،الفاصلة بين انشا ° الدولة العباسية وبين استلام المأمون للحكم ،حيث تحددت معالم السنة ( مالك بن انس ،الشافعي ، ابن حنبل ) ، والشيعة ( جعفر الصادق ،هشام بن الحكم ) والمعتزلة الذين حاولوا تقديم حل وسط توفيقي ، اضافة للاسماعيلية / ميمون القداح ° ابو الخطاب الاسدي / °وقد كان ذلك تعبيراً عن الصراع على من يمتلك المشروعية الدينية التي تشكل الأرضية العقائدية لاي مشروع سياسي هدفه الاستيلا ° على سلطة الدولة الموحدة ،ونلاحظ ،هنا ،بأن انهيار سيطرة البويهيين الفرس على الدولة العباسية ،في عام ( ١٠٥٥ م ) ،وجيء السلاجقة الأتراك السنة ، قد تزامن مع اتجاه كثيف الى احيا ° الأدب واللغة الفارسيين ( الفردوسي ،عمر الخيام ... الخ ) / الشيء الذي نرى معالمه مع الدولة السامانية التي

عاصروها ( ابن سينا ) / ،ومع تحول ( مسم ) و ( طوس ) الى عاصمتين للفكر الشيعي الامامي / أبو جعفر الطوسي ... الخ / والذي أصبح الأيديولوجية المعارضة الرئيسية بعد سقوط الفاطميين .

ان التشرذم السياسي وانهيار الدولة الواحدة قد أدى الى صراع ( المشروعيات ) ، كالذي رأيناه بين ( بغداد ) العباسية و ( القاهرة ) الاسماعيلية - الفاطمية ،وقد ادت هزيمة الفاطميين عبر التحالف العربي - الكردي - التركي السني الى وضع هؤلاء ،ومن بعدهم العثمانيين ،في مواجهة مشروع قومي - مذهبي كانت ملامحه تتجه الى التبلور الكامل ،كالذي حصل مع الصفويين الفرس الذين تبنوا المذهب الشيعي الامامي مذهباً لدولتهم القومية الخاصة ( عام ١٥٠٢ م ) مما أدى الى انقسام الاسلام الى عالمين :

١ - شيعي : مركزه في فارس ،حوله امتدادات ثانوية عند قوميات اخرى .

٢ - سني : مركزه عربي - تركي ،حيث كانت القوة العسكرية والسياسية للأتراك ،والثقافة ذات طابع عربي حتى عندما كان يساهم أفراد غير عرب في انمائها وتطويرها ،الشيء الذي ينطبق على البنية العقائدية الشيعية التي هي استمرار اسلامي للزرادشتية والمانوية ،الأمر الذي أثبتته كثير من الدراسات المعاصرة الغربية والعربية .

ان انهيار الدولة العثمانية قد تزامن مع ( الأتاتوركية ) كمذهب للقومية التركية والذي يرى ضرورة القطيعة ليس فقط مع المشرق العربي وانما مع الاسلام تحديداً كوسيلة للوصول الى عملية ربط تركية بالبنية والحضارة الأوروبيتين . بينما نلاحظ أن القومية العربية قد قامت ،كحركة سياسية ،عبر البعث والناصريين ،على أساس ان الاسلام هو " روح الأمة " ،الشيء الذي أوضحه بالأربعينات ،( ميشيل عفلق ) بمحاضرته حول " ميلاد الرسول العربي " / فيما كان الفكر القومي " العلماني " معزولاً ضمن اطار الحركة القومية العربية / وهذه مسألة طبيعية لمسألة الترابط العضوي بين نشوء الاسلام وعملية تكون وتبلور العرب كأمة وكيان وثقافة محددة .

ان التيارات الفكرية - السياسية العربية التي استطاعت أن تصل الى قلب الشارع العربي والى الأكثرية / يشكل السنة ٨٤٪ من مجموع سكان الوطن العربي / هي تيارات القوميين والأصوليين الذين شكلوا حالة سياسية لها نوع من التواصل الثقافي - المعرفي مع التراث الاسلامي ، بينما أرادت الليبرالية القطيعة مع هذا التراث للوصول الى نوع من اللقاء مع التراث اليوناني - الغربي ،الشيء الذي عبر عنه ( طه حسين ) و ( لطفي السيد ) ،الأمر الذي رأيناه ،أيضاً مع الستالينيين العرب ،مما جعل هذين التيارين الأخيرين

غير قادرين على تجاوز حدود " النخب " المثقفة والأقليات / ليس صدفة ، اتجاه كثير من الستاليين السابقين الى نوع من " العبادة المعاكسة " لفكر حسين ، كالذي نراه في هذه الأيام واذا كان " ولا " يتجهون ، الآن ، الى ( الاشتراكية - الديمقراطية ) ، وربما بعد هذه الى ( الليبرالية ) ، فان هذا المنحى هو الذي يسيطر ، الآن ، على الأحزاب الاشتراكية - الديمقراطية العربية والتي بدأ يعود فيها الفكر الليبرالي ( الحزب الاسباني ، مثلاً ) " / لقد بينت الحرب العراقية - الايرانية تغلب العامل القومي على الديني عند شيعة العراق وكذلك عند الخميني / قال الخميني في أوائل الثمانينات لبعض قادة شيعة العراق : " لو لم يكن محمد عربياً لما أسلم العرب " / . الا اننا نلاحظ أن كل عربي يضع نفسه في موقع " نفي " و " الغاء " التراث الاسلامي الثقافي ، يجد نفسه في اطار خاص غير " العروبة " ، كالذي نجده عند شارل مالك وسعيد عقل وبعض الليبراليين المصريين الذين تبنوا " الفرعونية " . وهذه مسألة لا علاقة لها بالانتماء الديني أو الطائفي ، وانما تعود الى الغاء " هذا التراث وحذفه ، يعني تكوين أمة جديدة / أو أمم / غير الامة العربية الحالية . لذلك ، فان التراث الثقافي الاسلامي ليس ملكاً أو ارثاً محصوراً بالمسلم المتدين ، وانما يشمل كل العرب ، مسلمين وغير مسلمين ، متدينين أو غير متدينين أو ملحدين . كما أن التواصل معه لا يعني " التدين " أو " الاسلمة " ، وانما هي عملية شبيهة بتواصل غرامشي مع الكاثوليكية اليسوعية الايطالية ، أو بتفاعل أي ليبرالي ألماني او انكليزي مع البروتستانتية أو مع ( البيوريتان ) الانكليز . حيث يكون الهدف ، وتحديد طبيعة بنية الأمة وخصائصها ، اضافة الى دراسة مسارات وقوانين حركة نشوء وتطور هذه البنية للوصول الى تحديد معالم الحاضر الراهن للأمة ، وذلك من أجل رسم معالم الحركة المقبلة سواء باتجاه علاقة الحاضر بالماضي وتداخلهما ، أو باتجاه تحديد طبيعة صراع ( الذات ) القومية مع ( الآخر ) / = الغرب / .

لهذا ، فان عملية التواصل المعرفي ، هذه ، لا يحدد فعاليتها وجدواها وجود " الارادة الطيبة " ، وانما المنهج المعرفي القادر على التبيان الدقيق لطبيعة تلك القضايا ، الشيء الذي فشل فيه القوميون والأصوليون ، حتى الآن ، فيما لم تستطع الليبرالية بعجزها استخدامها البنيوية و ( علم اجتماع المعرفة ) ، سوى الوصول الى رسم بعض ملامح ( بنية ) الأمة ، فيما أدى باتجاهها ( اللاتاريخي ) الى عدم قدرتها على رسم قوانين ومراحل التشوه والتطور وأسباب التدهور والانحطاط ، الشيء الذي لا نجد ، حتى الآن ، أفضل من الماركسية في تقديم هذه الرؤية التي لا تفصل بين البنية وحركتها ، وعلاقة

أنها قادرة بحكم كونها نظرة كلية للوجود ، أن تقدم رؤية دقيقة لعقيدة متشابهة من حيث المحتوى وطريقة التفكير .

ان هذا ليس نوعاً من " الانحياز الأيديولوجي " ، وانما هو نوع من تحديد " البضاعات المعرفية " الموجودة في السوق الفكرية العربية ، كما مورست أو يمكن أن توجه الاستخدامات الأولية لبعضها أو لما تم تجريبه في تحليل التجارب القومية الأخرى . والحقيقة أن من سيستطيع تقديم الرؤية الأدق لتاريخ الأمة ، وعلاقة ( الذات ) مع ( الماضي ) و ( الآخر ) ، / هذان الأمران اللذان يشكلان محور الصراعات الفكرية العربية في القرنيين الماضيين / ، هو الذي سيتمكن من أن يضع الأرضية الملائمة للسياسة العربية المقبلة ، وهو الذي سيحدد من سيكون في مركز القيادة السياسية على صعيد الشارع العربي ، لا أن تكون مسألة القيادة ومن يتولاها ناتجة عن ملء الفراغ الناتج عن فشل حركة سابقة ، كما حصل مع القوميين بعد حرب ١٩٤٨ وفشل الليبراليين ، / الأصوليين بعد هزيمة القوميين في حربي ١٩٦٧ و ١٩٩١ .

فهنا ، لن يكون هدف السياسة العربية ، ومن يقودها ، هو ، فقط ، التحرر من الهيمنة الغربية والوصول الى التنمية والتحديث / وهذا شرط لا لانطلاق والارتكاز على وحدة عربية كاملة أو البدء بوحدة أولية مثل وحدة بلاد الشام أو الأخيرة زائد العراق / ، وانما تقديم مشروع حضاري جديد ، أيضاً ، يرتكز على تجاوز تقسيم الانسان الى مجالين متناقضين ، لا التقاء بينهما ، هما ( المادة ) و ( الروح ) ، أو على فصل السياسة عن المعرفة والثقافة والميادين والايديولوجيا ، ورفض جعل ( المعلومات ) بدون نواظم وروابط معرفية محددة لطبيعة العلاقات بينها تحت ذريعة " التخصص " وعدم وجود علاقات بين ( العام ) و ( الخاص ) . كما أن هذا المشروع الحضاري الجديد يجب أن يخرج من الفصل الذي أقامته الحضارة الغربية بين ( الديمقراطية السياسية ) و ( الاقتصادية ) للوصول ليس فقط الى ( الفرد الصالح ) وانما الى ( المجتمع الأفضل ) ، أيضاً .

بقلم : ٣ . س

## مقتطفات

على المفكر أن يخاطب شعبه . خطابي الشخصي أختصره سلفاً في نقطتين :

الجدل لا الوضعية

الديمقراطية لا الليبرالية

هذا ليس معناه : لا للموقف الوضعي أو الايجابي بل معناه أن الموقف الوضعي أو الايجابي والواقعي الخ له أساس خارج ذاته ، له موقع كبير و " طويل الى ما لا نهاية " لكن بين حدين قطبين ، ولا يجوز أن يتحول الى مذهب ، لا يجوز أن يكون فلسفة ، وفلسفة تجهل نفسها كفليسفة في معظم الحالات ومصرة على هذا الجهل لذاتها ، لا يجوز أن يكون مذهبا وعقيدة ودينا يتصور نفسه عاصماً وواقياً ضد الشمولية والتوتاليتارية ، ويجهل توتاليتاريته هو . الجدل هو مذهب اقامة الحد ، بالمبدأ على هذه التوتاليتارية الخاصة والعامة سوا " بسوا " .

وهذا ليس معناه : لا لليبرالية ، بل معناه أن ثمة فرقاً يجب ان يوسم بين موقفين ومبدأين : ليبرالية / ديمقراطية . وأن هذا الفرق هو بين جملة أمور ، شرط لفهم تاريخنا الاخير وحاضرنا ومستقبلنا ، بلا ضياع ولا أحلام هوائية ، وشرط لتصالح قطاع واسع من المثقفين الجيدين مع تاريخنا وشعبنا . والديمقراطية ليست هدفاً وطريقاً وأداة في العمل السياسي ، وحسب ، بل هي أيضاً موقف في نظرية المعرفة . الديمقراطية هي موقف اعتراف بالكائن والواقع بذات الواقع والتاريخ ، موقف اعتراف بالبشرية الأمية صانعة التاريخ . سياسياً ، الليبرالية هي موقف اعتراف بنخبة مطبقة وسطى ، ببرجوازية ، بمثقفين وأحزاب ، بدائرة حديثة من مجتمعنا ، أي بشكل من أشكال " شعب الله المختار " حديث و " ايديولوجي " . كخبوية ، من السهل أن تتغلب هذه الليبرالية الى فاشستية . الديمقراطية هي موقف اعتراف بجماهير هي كتل كبيرة مهمشة ويجب أن تتحول الى ذات تاريخية وسياسية . ومن أجل هذه القضية ، التي هي قضية تاريخنا الأخير والراهن ، على المثقف أن يتنقل بوعي من " عنصر " وضعانيته الفلسفية الى عنصر الجدل .

× × × × × ×

من كتاب : المذهب الجدلي والمذهب الوضعي .
للمفكر الراحل المرحوم الياس مرقص